دكتور محمد خليفة حسن

Ein

آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آثار الفكر الاستشراقى في المجتمعات الإسلامية

د. محمد خليفة حسن أحمد

أستاذ تاريخ الأديان

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الاولى

١٩٩٧



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٢٨٥١٢٧٦

Publisher: ĒIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملتهم ﴾

(البقرة : ١٢٠)

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾

(آل عمران : ١٠٠)

صدق الله العظيم



المحتويات

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل السابع :

الخاتمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يُمثّل الفكر الاستشراقى فى معظمه حركة فكرية غربية مضادة للإسلام وللمسلمين . وقد ترك هذا الفكر آثاراً سلبية كثيرة في الفكر الإسلامى تظهر بصماتها واضحة فى المجتمعات الإسلامية وفى أنشطتها المختلفة . ويعتبر الاستشراق مسئولاً مسئولية مباشرة عن عملية الغزو الفكرى المتواصل للثقافة الإسلامية إذ لايكاد يخلو مجال من مجالات الحياة الإسلامية من أثر للفكر الاستشراقى . وعن طريق الاستشراق ، يحاول الغرب المحافظة على مكاسبه الثقافية التى جناها فى المرحلة الاستعمارية وتوسيع دائرة نفوذه الثقافى ، وتوجيه الحياة الشرقية عامة ، والإسلامية خاصة ، وجْهَة غربية. وعلى الرغم من وجود بعض الإيجابيات للفكر الاستشراقى فان حجم الآثار السلبية وعُمق هذه الآثار فى المجتمع الإسلامى لايمكن مقارنته بالفائدة التى تحققت من خلال الآثار الإيجابية . فالاستشراق أهدافه غربية خالصة ونتائجه بالنسبة للمجتمع الإسلامى نتائج خطيرة تسعى إلى محو الصفة الإسلامية وطبع المجتمع الإسلامى بطابع الثقافة الغربية .

وفى الصفحات التالية عرض للآثار الاستشراقية فى المجالات الدينية والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية، والثقافية ، والعلمية.

ويهتم هذا العرض ، بابراز الآثار السلبية ، وتوضيح الشبهات الاستشراقية والرد عليها فى هذه المجالات المختلفة . ونعرض بعد ذلك لإيجابيات الفكر الاستشراقى حرصًا على موضوعية البحث العلمى . ونختم هذه الدراسة بخاتمة توضح سُبُل مواجهة آثار الفكر الاستشراقى فى المجتمعات الإسلامية ، راجين الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين إلى تخليص فكرهم مما تسرب إليه من أفكار أجنبية ، والعودة إلى الفكر الإسلامى فى مصادره الأصلية فى القرآن الكريم والسُنّة النبوية .

الفصل الأول

الآثار السلبية للفكر الاستشراقى فى المجال الدينى

يعتبر مجال العقيدة الإسلامية من أهم المجالات التى اهتم بها المستشرقون ووجهوا لها النصيب الأكبر من دراساتهم ، فقد نشأ الاستشراق فى مجال الدراسات الإسلامية أصلا لدراسة العقيدة الإسلامية، والبحث عن الوسائل والعوامل التى يمكن تطويرها لهدم هذه العقيدة وتخريبها وتشويه أصولها . ويعتبر الدافع الدينى من أهم الدوافع التى وجهت المستشرقين لدراسة العقيدة الإسلامية ، فمنذ ظهور الإسلام وانتشاره فى العالم النصرانى القديم اكتشف الغرب أن الإسلام خطر عظيم يهدد النصرانية فى عقر دارها وعندما فشل الغرب فى المواجهة السياسية والعسكرية مع المسلمين ، ولم يتمكن من وقف الإسلام وانتشاره السريع فى البلاد النصرانية وغيرها من بلاد العالم القديم اتجه إلى دراسة الدين الإسلامى دراسة دينية عقدية متعمقة من أجل وضع الخطط الدينية والفكرية للدفاع عن النصرانية بالوسائل الفكرية بعد فشل المواجهة العسكرية . وهكذا تفرغ عدد من علماء النصرانية واليهودية للتخصص فى العقيدة الإسلامية ، والبحث فى أنجح الوسائل الفكرية لنقد الدين الإسلامى وتجريحه وتحريفه ، وتشويه صورته عملا على منع انتشاره بين النصارى واليهود من ناحية ، ولتشكيك المسلمين أنفسهم فى أمور دينهم وعقيدتهم من ناحية أخرى. ومع تطور الدراسات الاستشراقية فى العقيدة الإسلامية جمع

المستشرقون بين الهدف الدفاعى عن اليهودية والنصرانية ضد الإسلام – وبين الهجوم على الإسلام فى محاولة يائسة لوقف تقدمه ومنع انتشاره ، وفى هذا يقول د. حسن المعايرجى: «وقد نما هذا الهجوم الفكرى والعقيدى وشب حتى وصل إلى مرحلة متطورة فى عصرنا الحاضر ، وهو هجوم من شعبتين : شعبة موجهة إلى الشعوب المسيحية لتحصينها ضد الإسلام الذى انتشر واتسع نفوذه وذلك بتشويه صورته وتجريحه ، والقدح فيه، ونقده والتطاول عليه وعلى القرآن وعلى بنى المسلمين ، مما كون ما يشبه الجدار السميك من الأفكار السوداء عن هذا الدين الحنيف ... أما الشعبة الثانية فهى الشعبة الموجهة إلى المسلمين فيما نراه من هجمات تبشيرية بشعة على أمة الإسلام ... إن هذا الهجوم العقيدى الفكرى ... أخذ يتطور مع السنين حتى أصبح علما أو علوما لها مدارس ومناهج . وما الاستشراق ومقارنة الأديان ومعاهد الدراسات الشرقية فى الجامعات الغربية إلا من ثمار هذا الهجوم الفكرى »[١].

وعلى الرغم من أن الاستشراق لم يتمكن عبر تاريخه الطويل من تحريف العقيدة الإسلامية وفشل فى تحقيق هدف تشويه الدين الإسلامى، فقد نجح فى إثارة العديد من المشاكل الدينية والقضايا العقدية التى شغلت المسلمين من ناحية فى الرد على شبهات الاستشراق فى مجال العقيدة ، ودفعت المسلمين إلى اتخاذ موقف الدفاع ضد الاستشراق، الأمر الذى كان له تأثيره على الفكر الإسلامى الحديث ، وصبغه بالصبغة الدفاعية ، وابعاد العلماء المسلمين عن الدراسة العلمية المتعمقة فى أمور دينهم ، والسعى إلى حل القضايا الإسلامية المعاصرة من خلال

التأمل العميق فى تراثهم الإسلامى، وايجاد الحلول المناسبة لدينهم وحضارتهم لمشاكل الحياة الإسلامية الحديثة وقضايا التنمية التى تواجهها البلاد الإسلامية . لقد نجح الاستشراق فى جذب الفكر الإسلامى الحديث إلى النظر فى المشاكل والشبهات التى يثيرها المستشرقون، ووضع المسلمين فى موقف الدفاع ، وصرف نظرهم عن التعمق فى دينهم وأجبرهم على متابعة القضايا الكيدية ، والشبهات والتحريفات ، والأباطيل التى امتلأت بها الكتابات الاستشراقية .

ومن الممكن إحصاء الآثار السلبية للفكر الاستشراقى فى المجال الدينى فيما يلى :

١- إثارة الشكوك فى العقيدة :

عمل الاستشراق على إثارة الشكوك لدى فريق من العلماء المسلمين فى عقيدتهم ، وفى القيم الدينية والحضارية المنبثقة عن هذه العقيدة ، وقد كان التأثير الفكرى الاستشراقى عظيما فى عدد من هؤلاء المسلمين الذين تعلموا في الغرب ، أو الذين تحقق لهم نوع من الاتصال بالغرب وحضارته ومؤسساته الثقافية ، فأصابهم ما أصاب الغرب عامة من هجر للدين ، واحتقار له، والفصل بينه وبين أمور الدنيا. وقد خضع هؤلاء للقيم الغربية وتأثروا بمعطيات الحياة الغربية، وحاولوا نقل قيم الحضارة الغربية إلى عالمنا الإسلامى على اعتقاد منهم بأفضلية هذه القيم على القيم الإسلامية نتيجة الانبهار الشديد بحضارة الغرب وتقدمه العلمى والتكنولوجى ، والأخذ بمظاهر الحضارة الغربية، والاعتقاد فى عجز الحضارة الإسلامية عن استيعاب العلم الحديث والتكنولوجيا الغربية بسبب ارتباط حضارة الإسلام بالدين الإسلامى. ونادوا بفصل الدين عن

الدنيا ، وعزل الإسلام عن حضارته معتقدين أن التخلف العلمى للمسلمين فى العصر الحالى سببه ارتباط المسلمين بدينهم بينما تقدم الغرب لأنه هجر الدين وفصل بين الدين والدنيا .

ومن الواضح تأثر هؤلاء بالمظاهر المادية للحضارة الغربية وعدم تعمقهم فى فهم المشاكل الحضارية التى نجمت عن الاستغراق فى الحضارة المادية حين انفصلت عن الدين ، وأصبحت بلارقيب دينى أو أخلاقى يوجهها ، ويحدد لها هدفها ومسيرتها . كما أنهم لم يتعمقوا فى فهم دينهم الإسلامى وتراثهم وحضارتهم الإسلامية ويدل تاريخ الحضارة الإسلامية دلالة حاسمة على إمكانية قيام حضارة مادية معتمدة على قيم دينية وأخلاقية تحرسها ، وتضمن لها استمرارها وصلاحيتها ، وتبعدها عن السقوط فى شرور المادية المطلقة التى وقعت فيها الحضارة الغربية الحديثة. لقد حققت الحضارة الإسلامية فى عصور ازدهارها أقصى مراحل التقدم العلمى بسبب انبثاقها عن الدين الإسلامى ، وأخذها قيمها ومبادئها عن هذا الدين، فكانت حضارة صالحة لكل زمان ومكان ، وخالية من المفاسد والشرور التى تنتج عن سيادة المادة على الحياة الإنسانية .

كما أثيرت الشكوك لدى بعض المسلمين فى العديد من الموضوعات الدينية من بينها التهوين من أمر الكتب المقدسة ، والنظر إلى القرآن الكريم والحديث النبوى ومصادر العقيدة الإسلامية على أنها خاضعة للنقد العقلى ، وحض المسلمين على ضرورة التحرر فى دراسة هذه الكتب والمصادر الدينية وإخضاعها للرؤية النقدية العقلية ، وبالتالى التقليل

من قداستها والتخفيف من احترام المسلمين لها ، بل والحض على هجرها واستبدالها بالقوانين الوضعية والقيم الإنسانية التى لاتستند إلى مصدر إلهى. والنظر إلى العديد من العقائد على أنها أمور غيبية وأسطورية لايستطيع العقل الإنسانى اثباتها ، وبالتالى لابد من اخضاعها للدراسة النقدية العقلية وهجر كل ما يرفضه العقل .

وتأثر بعض المسلمين بهذا الاتجاه الاستشراقى العلمانى هو نتيجة الجهل بطبيعة الدين الإسلامى ، وهو دين العقل والفطرة السليمة ، والذى لا يتناقض والعقل فى كبيرة أو صغيرة [٢] فهو الدين الداعى إلى إعمال العقل فى أمور الدين والدنيا ، والداعى إلى ضرورة وأهمية التعقل والتدبر والتأمل والتفقه وغير ذلك من العمليات العقلية التى دعا إليها القرآن الكريم والحديث النبوى ، والدين الإسلامى يدعو إلى استخدام العقل فى فهم الدين وتفسير الوحى الإلهى ، واستنباط الأحكام والأدلة ، وفى تنظيم شئون الدنيا ويجهل هؤلاء العلماء الخلفية التى دفعت المستشرقين إلى التقليل من شأن الدين والوحى ، وما نتج عنه من تقديس للعقل وعبادة له . فالأحكام التى أراد المستشرقون نشرها بين المسلمين فى شأن القيمة المطلقة للعقل الإنسانى تستند إلى خلفية فكرية غربية خالصة لا صلة لها بطبيعة الدين الإسلامى وطبيعة عقيدته الغراء . فالمستشرق ابن بيئته الثقافية ، وهو كغربى - نصرانى أو يهودى- اكتشف منذ زمن طويل عقم الديانتين النصرانية واليهودية ، وعجزهما عن مواجهة الحقائق العلمية التى أتى بها عصر النهضة الأوروبية والثورة العقلية التى تحققت فى ذلك العصر الذى دخل بالغرب فى عصر العلم والتكنولوجيا .

وهنا يجب تنبيه المسلمين - خاصة المتأثرين منهم بالاستشراق والمنبهرين بنتائجه- إلى حقيقة أساسية في الدراسات الاستشراقية خاصة في مجال العقيدة الإسلامية . وهذه الحقيقة هي أن الأحكام الاستشراقية والآراء التي قيلت في شأن العقيدة الإسلامية هي في حقيقة الأمر أحكام وآراء وضعت في شأن الديانتين النصرانية واليهودية أصلا . فقد نتج عن ارتفاع شأن العقل في الغرب منذ عصر النهضة الأوروبية أن تم إخضاع الدين للعقل فأصبح الدين في الغرب موضوعًا للعقل والتحليل العقلي . ونتج عن النقد العقلي لليهودية والنصرانية - وهما الديانتان الأساسيتان في الغرب في عصر النهضة - اكتشاف ضعف الأساس العقلي لهاتين الديانتين . وهو اكتشاف منطقي ومعقول ، ولم يكن نتيجة تعسف أو مغالاة في استخدام العقل في فهم اليهودية والنصرانية . فمن المعروف لنا كمسلمين أن اليهودية والنصرانية تم تحريفهما على يد المعتقدين فيهما ، وتحولت الديانتان بسبب كثرة التبديل والتحريف من ديانتي وحي يحترم العقل ويحض على استخدامه إلى ديانتين أسطوريتين خرافيتين ، وذلك لكثرة ما دخل فيهما من معتقدات وثنية ، ومن عناصر دينية غريبة على التوحيد والوحي وبعيدة عن متناول العقل الذي فشل في تقديم تبريرات عقلية للمواد الأسطورية الوثنية التي تسربت إلى الديانتين .. وقد فشلت الديانتان في الاختبار العقلي الذي نصبه لهما عصر النهضة الأوروبية بحبائله وشباكه العقلية البحتة. وخلال هذه الحملة العقلية على اليهودية والنصرانية تم اخضاع كتبهما المقدسة للدراسة العقلية الناقدة . وكما فشلت الديانتان في الاختبار ، كذلك أيضا أثبت البحث العلمي النقدي

للعهد القديم والعهد الجديد أنهما كتابان من وضع الإنسان ، ومتلئان بالكثير من المادة غير العقلية أى التى لايقبلها العقل ، وهى المادة الأسطورية الخرافية التى تسربت إلى هذه الكتب من الوثنيات المحيطة بهما فى بيئة الشرق الأدنى القديم .

وعندما نجح علماء نقد الكتب المقدسة فى الغرب فى نقد اليهودية والنصرانية وكتب العهدين القديم والجديد اعتقد بعض المستشرقين أن المنهج العقلى الذى تم تطبيقه على اليهودية والنصرانية صالح للتطبيق على الإسلام وأن الأسلوب المستخدم فى نقد العهدين القديم والجديد صالح لنقد القرآن الكريم .

وقد أخطأ الاستشراق عدة أخطاء حين استعار منهج العلماء الغربيين الناقدين لليهودية والنصرانية لنقد الإسلام وكتابه الكريم ، وقد أخطأ المتأثرون بالاستشراق من علماء المسلمين حين جهلوا هذه الخلفية الثقافية للمناهج الاستشراقية ، وحين تجاهلوا الأساس العقلى للدين الإسلامى دين العقل والفطرة ، وخلو هذا الدين الحنيف وكتابه العظيم من الأساطير والخرافات التى اتهمت بها عن حق اليهودية والنصرانية . والخطأ الاستشراقى الأول يكمن فى أخذ منهج غربى صالح للتطبيق على اليهودية والنصرانية وتطبيقه عن تعسف على الإسلام. والخطأ الثانى يتضح فى تجاهل طبيعة الأسباب التى أدت إلى تطور المنهج النقدى العقلى فى الغرب ، وأن هذه الأسباب لم يكن لها وجود بالنسبة للإسلام. والخطأ الثالث عدم الاعتراف بالاختلافات الجوهرية بين الإسلام من ناحية واليهودية والنصرانية من ناحية أخرى ، والالتزام بمنهج واحد

فى دراسة هذه الأديان مجتمعة . أما الخطأ الرابع فيظهر فى سوء استخدام المنهج العلمى النقدى ، وهو استخدامه فى حالة الإسلام من أجل التشويه فقط لا غيره ، فهو سلاح نجح مع اليهودية والنصرانية ولا مانع عند المستشرق المغرض غير الموضوعى من استخدامه لتشويه صورة الإسلام مع علمه التام بعدم صلاحية هذا المنهج لدراسة الإسلام .

ويعتبر المستشرق اليهودى اجناس جولدتسيهر المسئول الأول عن استعارة هذا المنهج الغربى فى نقد اليهودية والنصرانية وتطبيقه على الإسلام دون مراعاة للاختلاف الجوهرى بين الإسلام وهاتين الديانتين من حيث عقلانية الإسلام فى مقابل أسطورية اليهودية والنصرانية ، وكذلك بالنسبة لكمال الإسلام كدين فى مقابل التطور التاريخى الذى مرت به اليهودية والنصرانية . فقد اعتبر جولدتسيهر الإسلام دينًا متطوراً مثله مثل اليهودية والنصرانية ، بمعنى أنه خاضع للعوامل التاريخية وما تتركه من مؤثرات على الدين . ولذلك فقد أخضع جولدتسيهر الإسلام لمنهج التأثير والتأثر [٣] اعتقاداً منه فى أن الإسلام مر بمراحل تطور ، وتأثر بغيره من الأديان ، ولذلك يجب إخضاعه لمنهج النقد التاريخى الذى أخضعت له من قبل اليهودية والنصرانية . وهى بلا شك محاولة بغيضة من جولدتسيهر للقضاء على أصالة الدين الإسلامى ، والحكم عليه بأنه استمد معتقداته من ديانات سابقة عليه أو لاحقة به، وبأنه دين خاضع للتطور مثله مثل بقية الديانات وخاصة اليهودية والنصرانية، وكما هو معروف فإن جولدتسيهر هو صاحب نظرية التطور الدينى للإسلام [٤] والتى طبقها على العقيدة والشريعة على وجه الخصوص .

ويجب التنبيه على الدراس المسلم للاستشراق أن يهتم بتتبع الخلفية الثقافية للاستشراق والمستشرقين ، ومعرفة المنهج الاستشراقى ومصادره فى الفكر الغربى ، ونقده من حيث عدم صلاحيته للتطبيق على الإسلام وحضارته ، إذ لم يفرق المستشرق بين مشاكل اليهودية والنصرانية ، واعتبرها مشاكل عامة لكل الأديان ، ومن بينها الإسلام . وطبق نفس المنهج بدون تمييز ، وفى حالة تطبيق المنهج النقدى الغربى على الإسلام كان القصد الاستشراقى الأساسى هو تشويه الدين الإسلامى ، والنيل من أصالته، وربطه بالديانات الأخرى ، والقول بأنه متأثر بها بهدف تضييع الشخصية الدينية المستقلة للإسلام كدين والتشكيك فى كماله(٥).

٢ - تشويه صورة الإسلام فى الغرب :

ومن الآثار السلبية للفكر الاستشراقى تشويه صورة الإسلام والمجتمع الإسلامى فى الغرب . ويعتبر هذا الأمر من أخطر الآثار السلبية للاستشراق . فالمسلمون فى بلادهم ثابتون على عقيدتهم ، عاملون بها ومطمئنون إليها ، بينما صورة الإسلام خارج العالم الإسلامى يتم تشويهها وتقديمها فى صورة مزيفة غير حقيقية بواسطة الاستشراق. وهى صورة تعطى انطباعًا سلبيًا للإسلام كدين وحضارة فى ذهن الإنسان الذى تلقى معرفته عن الإسلام من خلال المستشرقين الذين يمثلون المصدر المعرفى الأساسى للمعلومات الخاصة بالإسلام وبالمجتمعات الإسلامية . ولا يوجد مصدر آخر للمعلومات يمكن الاعتماد عليه فى تحسين الصورة الإسلامية ، أو إحداث التوازن المطلوب وإعطاء البديل المعرفى

للاستشراق . وهنا يجب الإشارة إلى تقصير المسلمين فى هذا الجانب ؛ حيث تركوا الاستشراق يسيطر على المعرفة الخاصة بالإسلام فى الغرب . والواجب تكثيف المجهود العلمى فى دائرة الكتابة عن الإسلام ، وحضارته ، ومجتمعاته فى اللغات الأوروبية الحديثة ، وأيضًا الاهتمام بترجمة الكتب الإسلامية الجيدة التى تعطى صورة حقيقية عن الإسلام، حتى يجد القارئ والمثقف والمتخصص الغربى المادة الإسلامية التى نطمئن إلى أنها ستقدم المعرفة الصحيحة والجيدة عن الإسلام ومجتمعاته إلى الغرب .

ولا يخفى أن أحد أهداف الاستشراق الأساسية حجب المعرفة الصحيحة عن الإسلام ، حتى لا يؤثر هذا الدين الكامل فى أهل الغرب. وهى حرب فكرية موجهة لمنع انتشار الإسلام فى العالم الغربى ، والتعتيم على المثقف الغربى ، وإعطائه معلومات خاطئة ومضللة عن الإسلام ، وتنفر الغرب منه كدين وحضارة . ولاشك فى أن كلمة المستشرقين مسموعة فى الغرب ، لأنهم علماء تخصصوا فى الإسلام ، وأصبحوا خبراء فى شئون المجتمعات الإسلامية ، وما يصدرونه من أحكام وآراء عن الإسلام والمجتمع الإسلامى يتقبله المجتمع الغربى دون أن يشك فى صحته . فالمستشرقون هم الحجة فى تخصصهم ، وعادة ما يؤخذ برأيهم فى كل المسائل التى تخص العالم الإسلامى . وقد اكتسبوا ثقة الإنسان الغربى بما يمثلونه من علم وخبرة نادرة يستعين بها المسئولون الغربيون فى الشئون السياسية ، والاقتصادية ، والفكرية الخاصة بالبلاد الإسلامية .

٣ - التعظيم من شأن الفرق الدينية ودورها فى المجتمع الإسلامى :

لايخفى على الدارس المسلم للاستشراق هذا التركيز الشديد على الدراسات الخاصة بالفرق الدينية التى ظهرت فى العالم الإسلامى قديمًا وحديثًا ، وكذلك الاهتمام بدراسة أوضاع الأقليات غير المسلمة داخل المجتمع الإسلامى . ويهدف المستشرقون من وراء هذا الاهتمام إلى تعظيم دور الفرق الدينية فى الحياة الإسلامية ، والتهويل من شأن تأثيرها فى المجتمع الإسلامى . والقصد من هذا كله النيل من وحدة الإسلام كدين ، ومن وحدة المجتمع الإسلامى ، ووحدة الحضارة الإسلامية. فالصورة التى يقدمها المستشرق تؤكد على عدم وحدة العالم الإسلامى وانقسامه إلى فرق دينية واجتماعية متعددة ، وتؤكد أيضا على وجود عدة عقائد إسلامية ، وبالتالى عدة مجتمعات إسلامية تتنوع فيها الحياة وتختلف أشكالها بما يؤدى إلى الاعتقاد الاستشراقى فى عدم وجود أمة إسلامية واحدة كما يعتقد المسلمون .

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل يبالغ الاستشراق فى الدور الدينى للفرق ، فيعتبرها مسئولة عما يسميه بتطور العقيدة فى الإسلام، وتعدد الرؤى العقدية ، مما يعتبره الاستشراق من باب إثراء الإسلام فكريًا من خلال تعدد المذاهب والفرق . وفضلاً عن هدف إظهار الإسلام فى شكل الدين الذى يحتوى على عدة مذاهب قديمة تشبيهًا له بالوضع فى اليهودية والنصرانية ، فقد اتجه الاستشراق حديثا وبمساعدة التنصير والاستعمار إلى تكوين واستحداث فرق دينية جديدة فى المجتمع الإسلامى بهدف زيادة عوامل الفرقة بين المسلمين ، والعمل على خلخلة

التوازن فى المجتمع الإسلامى . ومن المعروف الدور الذى لعبه الاستعمار والتنصير بمساعدة الاستشراق فى ظهور بعض الفرق المعادية للإسلام داخل المجتمع الإسلامى خاصة البابية والبهائية والقاديانية(٧) . وكذلك تشجيع الدراسات الخاصة ببعض الفرق القديمة مثل الشيعة والمعتزلة . والحماس الشديد الموجه لدراسة التصوف . والهدف من هذا الحماس العلمى إحياء هذه الفرق القديمة ، وخلق مكان جديد لها داخل الفكر الإسلامى، والعمل على تفتيت الوحدة الدينية والفكرية للمجتمع الإسلامى ، وذلك من خلال تمزيقه إلى عدة مجتمعات داخلية تختلف فى العقيدة والمذهب والفكر .

ولابد من الإشارة السريعة إلى أسباب الاهتمام الكبير الذى أولاه الاستشراق للدراسات الخاصة بالتصوف والذى تفرغ له عدد من عمالقة الفكر الاستشراقى فى القرنين الأخيرين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر نكلسون R . A . Nicholson وهنرى كوربان H.Corbin ولويس ماسينيون L . Massignon ، ومارجرت سميث Margaret Smith . هذا بالإضافة إلى مئات من المستشرقين الذين جعلوا من التصوف أحد أبرز اهتماماتهم فى الدراسات الإسلامية . ومن أهم هذه الأسباب تشجيع المتصوفة والعمل على مساعدتهم فى إحياء طرقهم التصوفية من أجل مزيد من التفتيت للمشاعر الدينية عند المسلمين ، وإظهار المجتمع الإسلامي فى صورة المجتمع المفكك دينيًا ، والمحتوى على العديد من المذاهب المغايرة للعقيدة الإسلامية عند أهل السنة والجماعة ... ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل لقد تطرف المستشرقون أيما تطرف

فى النظر إلى التصوف على أنه يمثل الروح الدينية الحقيقية فى الإسلام، أو كما يقول الدكتور زقزوق إنه يمثل عندهم الإسلام الحى: " فإسلام الكتاب والسنة يعد فى نظر مستشرق معاصر مثل كيسلنج إسلامًا ميتًا. أما الإسلام الحى الذى يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الإسلام المنتشر بين فرق الدراويش فى مختلف الأقطار الإسلامية"(٨) وينظر المستشرقون إلى التصوف على أنه يمثل أقصى مراحل التدين وذروة التقوى والشعور الدينى عند المسلمين ..

ومن الأسباب الأخرى الهامة وراء الاهتمام الاستشراقى بالتصوف ، أن التصوف عند المسلمين متأثر بأشكال التصوف المعروفة فى عدد من الديانات مثل الهندوكية والبوذية واليهودية والنصرانية . ولهذا فالتصوف عامل تقريب هام بين الإسلام والديانات الأخرى خاصة النصرانية التى اعتبرها بعض المستشرقين أحد المنابع الهامة للتصوف عند المسلمين . ويرتبط بهذا السبب سبب آخر هام وهو أن التصوف أحد العوامل المساعدة على ضرب أصالة الإسلام واستقلاليته كدين من خلال ربط الإسلام فكريًا ودينيًا بأديان أخرى ، والقول باعتماد الإسلام على هذه الأديان فى استعارة معظم عقائده ومفاهيمه .

ويعلم المستشرقون تمام العلم أن التصوف يمثل نوعًا من الممارسة الدينية المرفوضة عند أهل السنة والجماعة ، ولذلك يركزون على دراسته وإبرازه وتصويره بأنه يمثل الروح الدينية الإسلامية الحقيقية ، ويشجعون قيام الطرق الصوفية ، والعمل على انتشارها فى العالم الإسلامى حتى ينتهى الأمر إلى تجزئة العالم الإسلامى دينيًا ، وتقوية التجزئة الموجودة فعلاً إلى سنة وشيعة بإضافة التصوف .

والرؤية الاستشراقية للتصوف ترى فيه عاملاً هامًا من عوامل إخلال التوازن الذى حققه الإسلام بين أمور الدين والدنيا . فالحياة الإسلامية حياة متوازنة ، ومفهوم الدين فى الإسلام يتصف بالشمولية ، وتغطية كل مجالات الحياة الإنسانية ، وكل الأنشطة التى يقوم بها الإنسان ، وبدون تفرقة لما يسمى فى الغرب وحضارته بالدينى والدنيوى . ومن المعروف أن تاريخ التصوف يشهد على تركيز أهل التصوف على الدينى فى مقابل إهمال الدنيوى فضلا عن الفهم الصوفى الخاطئ لما هو مقصود بالدينى . لقد سنت الصوفية لأتباعها نهجًا فى الحياة الدينية يقوم على أساس من الزهد فى الدنيا والتقشف، والدعوة إلى التواكل ، وهجر العمل الإنسانى ، وعدم الأخذ بأسباب المدنية ، وهجر الحياة المادية بأكملها عند بعض غلاة المتصوفة ، الأمر الذى قرب التصوف من الرهبنة النصرانية ، خاصة بعد رفع التكاليف الشرعية ، وعدم الالتزام بأداء العبادات الإسلامية ، والاعتقاد فى مفاهيم دينية خاطئة فيما يتعلق بإمكانية الاتصال بالخالق (جلّ وعلا) أو الاتحاد معه أو تحقيق ما يسمى بوحدة الوجود . وهذه الأمور قربت بين التصوف ونظام الرهبنة فى النصرانية ونظم التصوف فى الهندوكية والبوذية بعد أن ضاعت معالم الإسلام فى المنهج الصوفى . وهو منهج قرّبها فى الحقيقة من الأديان الأخرى خاصة ديانات التصوف ، وأبعدها عن الإسلام دين العمل والتكاليف والعبادات . وقد رفض الإسلام هذا الاتجاه الصوفى برفضه للرهبنة ، ونظرته إلى العمل على أنه عبادة وحضه المسلم على إحداث التوازن بين حياته الدينية والدنيوية مصداقا لقوله تعالى ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾[٩].

ويدخل فى الرؤية الاستشراقية للتصوف اقترابه من النصرانية وهو أمر يشجع عليه المستشرقون عامة والمنصرون منهم خاصة . وذلك لأن فى التصوف تضييع لشخصية الإسلام كدين مستقل عن النصرانية ، وجذب للمسلمين لكى يأخذوا بشكل دينى هو أقرب إلى النصرانية منه إلى الإسلام ، فالمعتقدات الصوفية المختلفة فى الألوهية تجعلها قريبة من النصرانية ، خاصة ما أشرنا إليه من اتحاد ، وتجسيد ، وحلول ، ووحدة وجود. فهذه كلها مصطلحات للألوهية معروفة فى النصرانية ، وقد قال بها بعض غلاة التصوف مثل الحلاج وابن عربى .

وهذه كلها مصطلحات صوفية تشير إلى معتقدات صوفية مرفوضة إسلاميًا ، ولا تتفق مع النظرة الإسلامية إلى طبيعة الألوهية ، وطبيعة العلاقة بين الإلوهية والإنسانية . وهى علاقة قامت على أساس من طاعة المخلوق لإرادة الخالق سبحانه وتعالى ، واستسلام الإرادة الإنسانية للمشيئة الإلهية، وعدم الخلط بين الإلهى والإنسانى ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن الخلق ، والامتناع عن تصويره أو تجسيده أو التمثيل به فى أية صورة من الصور ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ (١٠). والتشديد على إنسانية الإنسان ، وعدم الإرتقاء به ، أو الخروج به من دائرة الإنسانية إلى أية مرتبة تقربه من الألوهية وتخلطه بها ، كما فعلت الصوفية حين قالت بمفاهيم الحلول والاتحاد ، أو اتحاد الإنسان فى الوجود كما يقول أصحاب وحدة الوجود . فقد فصل الإسلام فصلاً قاطعًا بين طبيعة الله وطبيعة الإنسان ، وأكد على اختلاف الذات الإلهية عن الذات الإنسانية ، واعتبر العلاقة القائمة بين الإنسان والله سبحانه وتعالى هى علاقة الطاعة ... طاعة المخلوق لإرادة الخالق.

ويجب أن نوجه الأنظار هنا إلى أن تشجيع الاستشراق للتصوف -تظريًا على مستوى الدراسة ، وعمليًا على مستوى تشجيع التصوف والعمل على انتشاره فى العالم الإسلامى -، إنما هو سعى إلى تأكيد شبهة استشراقية أساسية يحاول الاستشراق اثباتها وتأكيدها من كل الوجوه ، ألا وهى شبهة عدم أصالة الإسلام كدين ، والإدعاء بأن الإسلام مأخوذ من ديانات سابقة . فهو إعادة صياغة لمفاهيم دينية وجدت فى اليهودية ، والنصرانية ، والهندوكية ، والبوذية وغيرها من الأديان . وقد انصبت العديد من الدراسات الاستشراقية علي هذا اللون من الدراسات الذى يرد تعاليم الإسلام وعباداته إلى أصول فى الديانات الأخرى . ويأخذ المستشرقون فى هذا الخصوص بمبدأ التأثير والتأثر والقول بأن الدين السابق يؤثر على الدين اللاحق . ولأن الإسلام هو آخر الأديان الكبرى فقد أخذ مفاهيمه الأساسية من الديانات السابقة عليه(١١).

ومن أشكال الدراسات الاستشراقية الساعية إلى إحداث التغيير الدينى فى المجتمعات الإسلامية تلك الدراسات الخاصة بالفرق المخالفة للإسلام ، وعلى رأسها فرقة الشيعة والفرق التى ظهرت حديثًا في المجتمع الإسلامى ، مثل البهائية والبابية وغيرها . وتخدم دراسات الشيعة والفرق الحديثة عدة أهداف استشراقية منها خلخلة الوحدة الدينية للمسلمين ، والعمل على تجزئة الأمة الإسلامية الواحدة إلى عدة أمم ، وتشجيع الشيعة والفرق الأخرى على الثورة والتمرد ومحاربة مجتمع أهل السنة والجماعة. وقد حقق الغرب حديثًا وبإيعاز من

الدراسات الاستشراقية ، وتقارير الخبراء العاملين فى الجهات الحكومية المسئولة فى الغرب ، نجاحًا فى إثارة الشيعة - ممثلة بالذات فى إيران - ودفعها إلى إثارة القلاقل فى المجتمع الإسلامى ، وتصدير أفكار «الثورة الإيرانية» إلى خارج إيران فى محاولة لنشرها فى العالم الإسلامى بشتى الوسائل الممكنة ، ومحاولة نشر الأفكار الشيعية فى الجمهوريات الإسلامية الجديدة التى استقلت حديثًا عن الاتحاد السوفيتى المنحل ، والقيام بدور بارز فى توجيه هذه الجمهوريات الوجهة التى تخدم الأهداف الإيرانية المتعددة ، ومن بينها هدف نشر المذهب الشيعى . وتجد الفرق البهائية والبابية والبكداشية تشجيعًا كبيراً من الغرب. ويساعد الاستشراق مساعدة كبيرة فى دراسة هذه الفرق وتأصيل مفاهيمها ونشر نصوصها ، والتعريف بزعمائها ، وتقديم العون العلمى اللازم لأبنائها للدراسة فى جامعات الغرب ، ويعاملهم الغرب بشكل عام على أنهم مضطهدون فى العالم الإسلامى ، وواقعون تحت الاضطهاد الإسلامى فيسمحون لهم باللجوء إلى الغرب، ويبنون لهم المعابد والمحافل الضخمة التى يمارسون فيها شعائرهم وحياتهم الدينية، ويؤكدون فيهم النزعة المستقلة عن الإسلام والمسلمين ، ويدفعون بهم إلى التمرد والثورة ضد المسلمين ، والكتابة ضد المسلمين . ويشير الدكتور زقزوق إلى الاهتمام الاستشراقى بالفرق فى قوله : "يؤكد الاستشراق بوضوح ظاهر على أهمية الفرق المنشقة عن الإسلام كالبابية والبهائية والبكداشية وغيرها من فرق قديمة وحديثة ، ويعمل على تعميق الخلاف بين السنة والشيعة ، والمستشرقون يعدون المنشقين عن الإسلام على الدوام أصحاب فكر ثورى تحررى عقلى ، ودائمًا يهتمون بكل غريب وشاذ" [١٢].

٤ - التركيز الاستشراقى على الطوائف والأقليات فى المجتمع الإسلامى :

بالإضافة إلى الاهتمام الاستشراقي بالفرق الإسلامية وجّه الاستشراق جانبًا كبيراً من جهوده إلى دراسة وضع الطوائف والأقليات فى المجتمعات الإسلامية ، والهدف من هذه الدراسات يقترب كثيراً من هدف دراسة الفرق المخالفة للإسلام ؛ حيث يركز الاستشراق على إظهار المجتمع الإسلامى بمظهر المجتمع المكوّن من عدة طوائف وأقليات لها مذاهبها المختلفة ولها عاداتها وتقاليدها المتباينة ، ولها حياتها الخاصة داخل المجتمع الإسلامى ، الأمر الذى يظهر هذا المجتمع فى النهاية بأنه يتكون من عدة مجتمعات مختلفة لا تجمعها رابطة . وتميل بعض الدراسات الاستشراقية إلى التضخيم من حجم الأقليات والطوائف والتعظيم من دورها فى الحياة الإسلامية وفى الحضارة الإسلامية ، مما يوحى فى النهاية إلى أن هذه الحياة والحضارة الإسلامية ليست من صنع المسلمين ، ولكنها من نتاج هذه الطوائف والأقليات ، وأن النتاج الفكرى والحضارى الإسلامى إنما هو من عمل اليهود والنصارى والمجوس والهندوس وغيرهم من أهل الأديان والحضارات الأخرى .

وعادة ما يعمد المستشرقون إلى إظهار الطوائف والأقليات فى صورة مجتمعات مضطهدة داخل المجتمع الإسلامى بهدف تشويه صورة الإسلام خاصة فى الغرب وإظهاره فى صورة الدين المتعصب المضطهد لطوائفه غير المسلمة . وتحث الدراسات الاستشراقية أهل الطوائف والأقليات على التخلص من الاضطهاد المزعوم ، وتشجيع الطوائف على التمرد

والثورة وإثارة الفتن والاضطرابات داخل المجتمع الإسلامى ، وهى إحدى وسائل الاستشراق من أجل زعزعة المجتمع الإسلامى وإضعافه من الداخل . ويرتبط بهذه الدعوة الاستشراقية بث النزعة القومية لدى الطوائف والأقليات ونشر الدراسات التى تحاول إثبات اختلافها عن الأمة الإسلامية ، وتحديد هوية قومية لها ، ودفعها إلى المطالبة بالاستقلال وأشكال الحكم الذاتى التى تضمن لهم بلورة وتطوير شخصيتهم القومية ، وتعزلهم عن المجتمع الإسلامى ، وتقتطع لهم أجزاءً من العالم الإسلامى بهدف تجزئة هذا العالم وشرذمته وتقسيمه إلى دويلات طائفية لاضعافه والقضاء على وحدته . ويجب أن نشير فى هذا الخصوص إلى أن العديد من المستشرقين عملوا كضباط وجنود وموظفين فى الدوائر الاستعمارية لبلادهم فى بلاد المسلمين ، وقد لعبوا دوراً أساسيًا من خلال دراساتهم النظرية وجهودهم العملية فى دفع أهل الطوائف والأقليات إلى المطالبة بالاستقلال القومى عن الحكومات الإسلامية ، وبالحكم الذاتى فى بعض المناطق ، من أجل مساعدتها على تكوين جماعات سياسية وكيانات قومية مناهضة للحكم الإسلامى .

وقد سعت الدراسات الاستشراقية فى هذا الخصوص إلى تنمية الصراع بين المسلمين وغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، وهو صراع اتخذ شكلين فى الدراسات الاستشراقية : الشكل السياسى الذى يسعى إلى إثارة القوميات وبعث الروح القومية لدى الأقليات ، وتيسير ذلك نظريًا من خلال الدراسات التى تحاول تأصيل الفكر القومى للأقليات ، وعمليًا من خلال تقديم العون السياسى اللازم لمساعدة الأقليات على تحقيق

هويتها القومية، ومن ثم تحقيق الاستقلال عن الأمة الإسلامية والانفصال عنها .

أما الشكل الثانى فهو شكل دينى يعمل على تنمية الصراع الدينى بدفع الأقليات إلى التحول إلى جماعات دينية داخل المجتمع الإسلامى ، وربط هذه الجماعات الدينية بأطر قومية ، ودفعها إلى تحقيق الاستقلال الدينى والسياسى عن الأمة الإسلامية مصورين لهذه الطوائف والأقليات أن خلاصها يتمثل فى خروجها على الأمة الإسلامية وانفصالها عنها . وقد مارس الاستشراق هذا الدور بشكل واضح فى مصر مع الأقباط مشجعًا الفكرة القومية عندهم ، ومحولاً نصرانيتهم إلى نصرانية تفصلهم عن المسلمين فى مصر . ويظهر هذا أيضًا فى إحياء النزعة القومية لدى السريان فى العراق وسوريا ولبنان ومساعدتهم فى تكوين رؤية قومية دينية تظهر فى محاولات إحياء اللغة السريانية كلغة للحديث ، وتشجيع الازدواجية اللغوية بينهم . وهناك مؤسسات استشراقية خاصة فى بلاد الشمال الأوروبى مثل هولندا وبلجيكا تعمل على إحياء السريان كشعب وتشجيع بقايا السريان في العراق وسوريا ولبنان على تكوين رؤية قومية دينية خاصة بهم . وقد وصل هذا التشجيع إلى حد تخصص بعض هذه المراكز فى مسألة إحياء اللغة السريانية كلغة للحديث والكتابة بين السريان . وتقوم هذه المراكز بطبع الكتب التعليمية الحديثة فى اللغة السريانية وتعيد طبع المؤلفات السريانية القديمة ، وتشجع على التأليف الحديث فى اللغة السريانية إلى غير ذلك من الجهود الساعية إلى إحياء اللغة كإحدى مقومات بع

القومية السريانية ، ويجب أن نشير أيضًا إلى المحاولات العديدة المشابهة التى يقوم بها المستشرقون فى بلدان القارة الإفريقية من خلال إحياء اللغات القبلية والقومية ، وترجمة العهد الجديد إلى مئات اللغات واللهجات الإفريقية ، من أجل تيسير التنصير ، وتشجيع عملية إحياء هذه اللهجات كعامل قومى هام فى بعث النزعة القبلية والقومية لدى العديد من الأفارقة .

٥ - التمكين للصهيونية فى العالم العربى :

ويذكرنا الحديث عن بعث القوميات واللغات القومية بالجهود التى بذلها الاستشراق ، خاصة الاستشراق اليهودى والصهيونى ، من أجل بعث القومية اليهودية، وتمكين اليهود من تكوين رؤية قومية يهودية ، وتحويل اليهود من جماعة دينية إلى جماعة قومية ، وربط اليهودية بالقومية فيما عرف باسم الصهيونية ، ولتحقيق هذا قام العمل الصهيونى الاستشراقى على المستوى الفكرى والسياسى ببعث اللغة العبرية وتحويلها إلى لغة حديثة معاصرة تستخدم فى الحديث والكتابة ، والعمل على تفريغ فلسطين من سكانها العرب ، وإقامة دولة يهودية فيها. ويعود للاستشراق الدور الكبير فى خلق الصهيوية كفكرة والسعى إلى تحقيقها من خلال الجهود العلمية الاستشراقية سواء على مستوى الدراسات اللغوية لإحياء اللغة العبرية ، أو على مستوى الدراسات التاريخية الساعية إلى تأصيل الوجود اليهودى فى فلسطين وإثبات الأحقية التاريخية والدينية لليهود فى فلسطين ، والدراسات الأثرية الموجهة لنفس الغرض ، والدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط وشعوبه،

لتقديم العون العلمى فى معرفة العرب وتاريخهم وحضارتهم وديانتهم ، وتوجيه كل هذه المعرفة لخدمة المصالح الصهيونية [١٣].

وقد كان للاستشراق الصهيونى دور عظيم فى نشر الصهيونية بين اليهود فى بلاد العالم العربى والإسلامى والغربى ، ودفع يهود العالم الإسلامى إلى الهجرة إلى فلسطين بعد إثارة النزعة القومية فيهم. والحقيقة أن يهود العالم الإسلامى لم تكن لهم مشكلة قومية فى ظل الدولة الإسلامية التى رعت حقوقهم ، وحققت لهم التعايش السلمى داخل المجتمع الإسلامى كأهل ذمة ، وأهل كتاب ، فأصبحوا خلال فترات التاريخ الإسلامى مواطنين لهم حقوقهم الدينية والسياسية وعليهم ما على المسلمين من واجبات ... ولم ينجذب يهود العالم الإسلامى إلى الصهيونية إلا بعد ممارسة الضغوط الصهيونية الشديدة عليهم للتنازل عن حياتهم الآمنة فى المجتمع الإسلامى ، والانضمام إلى الحركة الصهيونية فى مراحلها المتأخرة . فمن المعروف أن ما يسمى بالمشكلة اليهودية التى أثارتها الصهيونية هى مشكلة أوربية لم يعان منها يهود العالم الإسلامى ، وقد فرضت القومية اليهودية فرضًا إجباريًا على كل يهود العالم الإسلامى الأمر الذى أدى إلى فساد علاقة يهود العالم الإسلامى بالمسلمين فأصبحوا بانضمامهم للحركة الصهيونية من ألد أعداء المسلمين .

وقد اعتمدت الحركة الصهيونية اعتمادا كبيرا على المستشرقين الصهاينة فى التنظير للفكرة القومية والدعوة إليها بين اليهود . وقد تعاطف المستشرقون النصارى مع اليهود لدوافع سياسية ودينية وحضارية ، فقد اعتبروا فلسطين اليهودية أفضل من فلسطين المسلمة،

فهذا يعد كسبًا سياسيًا ودينيًا للنصرانية فى صراعها ضد الإسلام ، بل هو يحقق عند بعض المذاهب النصرانية شرطًا من شروط القدوم الثانى للمسيح عليه السلام خاصة عند المذاهب الإنجيلية التى تعتبر عودة اليهود وتجمعهم فى فلسطين أحد شروط قيامة المسيح عليه السلام(١٤).

وتعتبر قضية فلسطين من أهم القضايا التى اهتم بها الاستشراق يهوديًا أو نصرانيًا ، وقد استخدم الاستشراق أسوأ استخدام حين وجهت الإمكانات الاستشراقية لخدمة المصالح الصهيونية ، ولم يتوقف هذا الاستخدام السلبى عند حدود توجيه علوم الاستشراق المختلفة لإثبات دعاوى الصهيونية فى فلسطين ، بل تعدت هذا الهدف وتجاوزته إلى التشويه المقصود لصورة العرب والمسلمين فى الغرب وللدين الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وتقديم المجتمع الإسلامى للغرب فى شكل مجتمعات بدائية متخلفة يسودها العنف والإرهاب ، وتصوير المجتمع الفلسطينى خاصة والعربى عامة فى صورة مجتمعات بعيدة عن المدنية والتقدم ، وأن الحركة الصهيونية هى حاملة راية التقدم والمدنية والناشرة للحضارة الغربية وقيمها فى هذه المجتمعات الجاهلة .

٦ - دور الاستشراق فى التمكين للتنصير فى بلاد المسلمين :

من أهم الآثار الدينية للاستشراق فى المجتمعات الإسلامية قيام عدد كبير من المستشرقين بالأعمال الساعية إلى تنصير العالم الإسلامى ، ونشر الثقافة النصرانية فى المجتمعات الإسلامية . وقد كان التنصير ولا يزال أحد الأهداف الأساسية للاستشراق، فقد انتقل الاستشراق من مرحلة الدفاع عن النصرانية قديمًا إلى الهجوم على الإسلام ، وذلك من

خلال عدة وسائل من بينها تغريب العالم الإسلامى بنشر الثقافة الغربية فيه ، ومن أخطرها بلا شك توجيه الحملات التنصيرية إلى بلاد العالم الإسلامى لجذب أعداد من المسلمين بوسائل مختلفة إلى اعتناق النصرانية وتشكيك المسلمين فى دينهم فى حالة عدم النجاح فى إدخالهم فى النصرانية .

والدور الذى لعبه الاستشراق فى مساعدة التنصير وتمكينه من القيام بعمله فى المجتمعات الإسلامية ينحصر فى إعداد المنصّر وتجهيزه بالمعلومات اللازمة عن البلاد الإسلامية ؛ من بينها تعريفه بالإسلام وحضارته ، ولغاته ، ومجتمعاته ، وتاريخه وجغرافيته ، وعمل الدراسات العملية التى تكشف للمنصر مواطن الضعف فى المجتمعات الإسلامية ، ودراسة الاحتياجات اللازمة فى بعض بلاد المسلمين التى تعانى من الفقر والمرض ، وسد هذه الاحتياجات عن طريق الأعمال التنصيرية المسماة بالأعمال الخيرية التى تهدف أصلا إلى حل مشاكل بعض المسلمين الاقتصادية والاجتماعية والصحية ، وجذبهم إلى النصرانية من خلال هذه الوسائل التعليمية والطبية والخيرية[١٥]. وعمل الاستشراق أيضًا من أجل معرفة أفضل الوسائل والسبل لتقديم النصرانية إلى المسلمين ، وذلك من خلال عقد الدراسات المقارنة بين الإسلام والنصرانية ، وتوضيح صلات القرابة بين الديانتين ، والتركيز عليها بهدف اقتناع ضعاف المسلمين بأن الإسلام يؤيد النصرانية ويعترف بالمسيح عليه السلام ويعترف بكتب النصارى دون توضيح الموقف الإسلامى الصريح والواضح من هذه المفاهيم[١٦].

ولقد كان الاستشراق ولايزال الوسيلة العلمية التى يستخدمها التنصير للتعرف على أوضاع المجتمعات الإسلامية وسلبياتها ، ووجوه الضعف فيها ، والبحث عن ثغرات لتقديم النصرانية من خلالها إلى المسلمين والتعرف على منافذ للتنصير ، وقد كان للاستعمار فى القرنين الأخيرين تأثير كبير فى توجيه ومساعدة التنصير فى المجتمعات الإسلامية . فقد وفر الاستعمار الحماية اللازمة للمنصّرين . ويسّر لهم حرية الحركة والعمل فى البلاد الإسلامية ، وساعدهم فى تأسيس مراكز للتنصير ومؤسسات للعمل التنصيرى تحت الحماية الاستعمارية . وقد عملت هذه المؤسسات بكل قوة ومن منطلق السيادة السياسية للمستعمر فحاولت بشتى الطرق اختراق المجتمعات الإسلامية ، وبناء الكنائس ، وتقوية الأقليات النصرانية والاعتماد عليها فى عملية التنصير من الداخل ، ومدّها بالأموال والإمكانات اللازمة لنشر النصرانية. واهتم الاستشراق التنصيرى أيضًا بإعداد ترجمات العهد الجديد إلى لغات العالم الإسلامى ولهجاته ، ونشر الكتب الشارحة للنصرانية ، والتفاسير المختلفة للأناجيل ، والتعريف بالمذاهب النصرانية . ويجب أن نشير هنا إلى تعدد جبهات التنصير فى العالم الإسلامى ؛ فلكل مذهب نصرانى إرسالياته وبعثاته التنصيرية. فالاختلاف الجوهرى بين المذاهب أدّى إلى أن تقوم كل كنيسة بعملها التنصيرى مستقلاً عن الكنائس الأخرى الأمر الذى أدى إلى تشابك العمليات التنصيرية ، واختلاط الأمر على المسلمين فى مواجهتها ، حيث تتطلب هذه المواجهة معرفة جيدة بكل مذهب نصرانى على حدة ومواجهة العمل التنصيرى حسب اتجاهه الدينى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكاثوليكى أو البروتستانى أو الارثوذوكسى ، بل هى تتطلب معرفة بالمذاهب الفرعية المنبثقة عن المذاهب الرئيسية ؛ حيث نشطت بعض المذاهب الصغيرة والفرعية فى العمل التنصيرى من وجهة نظرها المذهبية. ويتطلب مقاومة التنصير بذل الجهود الإسلامية لحل مشاكل المجتمعات الإسلامية الفقيرة التى تسلل إليها المنصرون مستغلين فقرها واحتياجاتها الاقتصادية ، ويتطلب الأمر سد الحاجات الاقتصادية وتقديم الرعاية الإسلامية الكافية ، وتقوية العمل الدينى والدعوى فى هذه المناطق حتى لا تكون فريسة سهلة للتنصير ، كما يتطلب الأمر سد الطرق أمام التنصير ، وعدم السماح للمؤسسات التنصيرية بمزاولة أنشطتها وتشجيع المؤسسات الإسلامية على تقديم الرعاية الدينية والاجتماعية والاقتصادية لفقراء المسلمين .

الفصل الثانى
الآثار السياسية للاستشراق
فى المجتمع الإسلامى

١ - دور الاستشراق فى التمكين للاستعمار فى العالم الإسلامى :

نشأ الاستشراق وتطور فى ظل الصراع الغربى ضد الإسلام ، وكسلاح فكرى من أسلحة الغرب الموجهة ضد الإسلام كدين وحضارة . وواصل الاستشراق دوره كسلاح علمى وفكرى منذ بداية الإسلام وحتى وقتنا الحاضر مرتبطًا بالحركات الاستعمارية الأوروبية ، ووظيفة الاستشراق السياسية تقديم المعرفة بالأوضاع السياسية ، والدينية، والاقتصادية ، والاجتماعية الخاصة بالبلاد الإسلامية للقائمين على الحركة الاستعمارية فى البلاد الأوربية المختلفة وذلك لتسهيل عملية الاستعمار ، وتيسير طرق التعامل مع أهل البلاد المستعمرة . ورغم تعدد مراحل الاستعمار فالمرحلة الأخيرة التى تغطى القرنين التاسع عشر والعشرين تعد من أهم هذه المراحل وأخطرها فكريًا وسياسيًا على المسلمين ؛ إذ لم يكتف المستعمر فيها بنهب الموارد الاقتصادية ، وفرض السيطرة السياسية والفكرية ، ولكنه اتجه إلى إحداث التغيير فى التفكير السياسى عند المسلمين وإجبارهم علي تبنى النظم السياسية الغربية والتخلى عن النظم الإسلامية . وهذا بطبيعة الحال دور فكرى قام به الاستشراق السياسى الذى نقد النظم الإسلامية ، ووصفها بالجمود

والتخلف وعدم الصلاحية ، وشرح النظم الغربية ، وبين محاسنها وزينها في أنظار المسلمين ، وحاول فرضها بالقوة في كثير من الأحوال ، وأعد من بين المسلمين علماء تابعين للاستشراق يروّجون للنظريات السياسية الغربية وينشرونها بين المسلمين . وفي الفترة الاستعمارية الحديثة اختلط عمل المستشرق بعمل المستعمر ، بل وقد كان المستشرق هو المسئول الاستعماري نفسه حين عين العديد من المستشرقين كموظفين في الدوائر الاستعمارية ، وحين جذب الاستشراق عدداً من الضباط والجنود والمترجمين في هذه الدوائر الاستعمارية فوظفوا خبرتهم لخدمة الاستعمار، وجمعوا بين العمل الاستشراقي والعمل الاستعماري [١٧]. وبعد انحسار الاستعمار عمل العديد من المستشرقين كخبراء في وزارات الخارجية الأوروبية والأمريكية في مجالات السياسة ، والاقتصاد ، والدين ، والاجتماع لتقديم المعرفة اللازمة عن شعوب المسلمين للدوائر السياسية في بلادهم ، وهكذا جذب العمل السياسي عدداً كبيراً من المستشرقين فساعدوا بلادهم بتقديم المعرفة العلمية والتقارير السياسية والاقتصادية عن البلاد الإسلامية التي تخصصوا فيها ، وشاركوا في وضع استراتيجيات بلادهم والتخطيط لسياساتها في بلاد المسلمين .

ونتيجة لهذا العمل الاستشراقي السياسي عبر قرون من الصراع الغربي ضد الإسلام تمكن الاستشراق من إحداث العديد من التأثيرات السلبية في الفكر السياسي الإسلامي نتج عنها تغييرات خطيرة في مسيرة التاريخ السياسي للمسلمين في القرنين الأخيرين .

٢ - بعث القوميات فى العالم الإسلامى :

عمل الاستشراق - كجناح فكرى للاستعمار الغربى - على بعث الروح القومية في الشعوب الإسلامية كواحد من الوسائل الهامة فى سبيل تجزئة الأمة الإسلامية وتفتيتها إلى عدة شعوب بعيداً عن الرابطة الإسلامية التى ربطت المسلمين عبر العصور. وفى سبيل تحقيق هذا الهدف نشط الاستشراق نشاطًا علميًا واضحًا فى مجال الدراسات القومية التى ركزت على دراسة تاريخ كل شعب إسلامى على حدة ، بهدف تحقيق العزل الدينى والثقافى للشعوب الإسلامية عن بعضها البعض ، وإضعاف العامل الدينى كعامل أساسى فى ربط الشعوب الإسلامية ، وتأصيل الوجود القومى لكل شعب ، وذلك بالعودة إلى التاريخ القديم السابق على ظهور الإسلام، وعلى دخول الشعوب الإسلامية فيه ، وإبراز الصفات والسمات القومية وإعلائها على السمات الإسلامية ، وتقوية النعرة القومية والنزعة العرقية الانفصالية ، والاتخاذ من التراث التاريخى والحضارى القديم كأساس للتفرقة ، وتفضيل حضارة على حضارة ، والإيحاء بالشعور بالأفضلية العرقية لكل شعب على الآخر . وهكذا أثار الاستشراق بتركيزه على تواريخ ، وحضارات الشعوب الإسلامية قبل الإسلام النزعات القومية ، وأثار العصبيات بين العرب من ناحية والشعوب الإسلامية من ناحية أخرى ، وأبرزها إثارة العصبية بين العرب والفرس والترك ، والنجاح فى عزل هذه الجماعات من بعضها البعض ، وإخراجها من دائرة الرابطة الإسلامية

التى ربطتها قديمًا إلى دائرة الرابطة القومية التى عزلتها حديثًا عن بعضها البعض وجعلتها تتخذ مواقف معادية على المستوى الإقليمى والدولى ، كما يظهر فى العديد من المشاكل السياسية والصراعات الإقليمية والحروب العالمية التى اتخذت فيها الشعوب الإسلامية مواقف متضادة استناداً إلى مصالح قومية خالصة .

وقد اتجه المستشرقون المتخصصون فى التاريخ الحديث للشعوب العربية والإسلامية إلى عزل تواريخ هذه الشعوب عن التاريخ الإسلامى، ومعالجة تاريخ كل شعب عربى وإسلامى داخل إطار قومى عرقى ، وقد كونوا فى هذا نظريات قومية أشاعوها بين العرب وغيرهم من الشعوب الإسلامية ، تؤكد على الجوانب القومية ، وترفع من شأنها ، وتطالب ببعثها من جديد ، وقد نجحوا فى ذلك فى عدة بلاد عربية وإسلامية. ومن هذا بعثهم للفرعونية فى مصر ، والبربرية فى الشمال الأفريقى ، والفينيقية فى لبنان وسوريا ، والكنعانية فى فلسطين ولبنان، والآشورية فى العراق ، والفارسية فى إيران، والقومية التركية فى تركيا ... إلخ . ولم يتوقف دور الاستشراق فى بعث كل هذه الحركات والنظريات القومية بل أثار النزعة القومية داخل كل بلد إسلامى على حدة وذلك بإثارة العصبيات القبلية والروابط العرقية . كما اهتم الاستشراق بدراسة الأقليات داخل كل بلد عربى وإسلامى لتقوية النزعة الانفصالية لدى أهلها، وتحريكها إلى المطالبة بالاستقلال وبالحكم الذاتى ، أو غير ذلك من أشكال الحكم التى تحقق فيها لنفسها انفصالاً عن الأمة وانعزالاً عن بقية أبناء المجتمع الإسلامى (١٨). ويذكر فى هذا الخصوص دور

الاستشراق النصرانى فى إثارة القومية لدى بعض الجماعات النصرانية فى العالم العربى مثل الأقباط فى مصر ، والموارنة فى لبنان ، ودور الاستشراق اليهودى فى بعث القومية اليهودية الصهيونية لدى يهود العالم العربى والإسلامى ، وعزلهم عن مجتمعاتهم الإسلامية وإجبارهم على الهجرة إلى فلسطين، والنجاح فى إقامة الكيان اليهودى الصهيونى فى أرض فلسطين العربية الإسلامية . وداخل هذا الإطار القومى ثارت مشكلة الأكراد فى تركيا والعراق وسوريا ، والجماعات الشيعية فى العراق ولبنان وبلدان الخليج العربى ، وفى بعض المناطق الأخرى مثل أفغانستان .

ويضاف إلى هذا كله دور الاستشراق الشيوعى فى نشر الفكر الشيوعى بأشكاله المختلفة فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، وفرض نظام سياسى اقتصادى بعيد عن الفكر الإسلامى ومناقض له يتراوح بين الماركسية والاشتراكية . كما سعى الاستشراق الغربى إلى جذب العديد من البلاد الإسلامية إلى النظام الغربى الرأسمالى بآلياته السياسية والاقتصادية ، فضلاً عن نقل فكر هذه الدول الشيوعية والرأسمالية وثقافتها وأساليب حياتها إلى مجتمعاتنا الإسلامية ، مما أدى إلى تفكك هذه المجتمعات ، وفقدانها لوحدتها السياسية والاقتصادية ، وتغيير الحياة فى بلدان العالم الإسلامى بما يتفق والنظام المستورد . وهكذا تنوعت النظم المستوردة واختفى النظام الإسلامى من حياة المجتمعات الإسلامية بعد سيادة الفكر القومى ، الذى يؤكد على

الاختلاف ، ويحض عليه ، ويؤصل له بالعودة إلى فترات التاريخ القديم قبل ظهور الإسلام ، والنظر فى حياة هذه الشعوب وأساليب حياتها قبل دخولها فى الإسلام ، أو من خلال ربطها بنظم حديثة أجنبية ، وإسقاط العامل الدينى الإسلامى الذى ربط هذه الشعوب ، وجعل منها أمة واحدة .

٣ - إسقاط الخلافة العثمانية :

مثلت الخلافة العثمانية منذ بدايتها وحتى سقوطها وحدة المسلمين كأمة من ناحية، واستمرارية نظام الخلافة الإسلامى من ناحية أخرى . ورغم ضعف الخلافة العثمانية فى أواخر أيامها إلى الحد الذى سميت فيه « الرجل المريض » فقد كانت رمزاً لهذه الوحدة ، ورمزاً للخلافة التى بدأت منذ الخلافة الراشدة ولم تتوقف حتى سقوط الخلافة العثمانية. وقد تعددت أسباب ضعف الخلافة العثمانية ، وتراوحت ما بين أسباب داخلية تختص بتحلل الخلافة من الداخل ، وأسباب خارجية من أهمها تكالب الدول الغربية الاستعمارية على الخلافة ، وبذلها كل الجهود السياسية والعسكرية لإسقاطها والتخلص منها كرمز لوحدة المسلمين ولنظام الخلافة فيهم . ولسنا هنا فى مقام الحديث عن أسباب سقوط الخلافة العثمانية ولكن نرغب فقط فى تحديد دور الاستشراق فى تحقيق هذه المهمة وهو دور بلا شك عظيم وخطير .

لقد اهتم الاستشراق اهتمامًا كبيراً بالنظام السياسى فى الإسلام ، وكان موضوع الخلافة من أهم الموضوعات التى أولاها الاستشراق

الاهتمام العلمى والسياسى . وقد علم المستشرقون أن تشويه صورة الخلافة فى الماضى وضربها فى الحاضر يعد عاملاً أساسيًا فى محاربة الإسلام الذى تمكن من خلال الخلافة فى عصور قوتها من إرسال الفتوحات الإسلامية إلى البلاد النصرانية ، ومواجهة الجيوش الصليبية ، ومحاربة الاستعمار الحديث منذ القرن الثامن عشر الميلادى . ويذكر للخلافة العثمانية أنها لم تكن مجرد رمز فقط للخلافة الإسلامية ، ولكنها قامت بالفتوحات الإسلامية ولأول مرة فى قلب القارة الأوروبية ، وهو خطر عظيم لم يمر به الغرب من قبل فى تاريخ علاقته بالمسلمين . لقد ظلت الخلافة فى العثمانيين أكثر من خمسة قرون ، وصلوا فيها بفتوحاتهم إلى أبواب فيينا ، وأصبحت الخلافة العثمانية تمثل من وجهة نظر الغرب الأوروبى خطراً دينيًا وسياسيًا على القارة الأوروبية : حيث امتدت أملاك الخلافة داخل القارة الأوروبية ، وانتشر الدين الإسلامى على يد العثمانيين فى العديد من البلاد الأوروبية الشرقية ، وأصبحت المواجهة الإسلامية العثمانية للعالم الغربى المسيحى مواجهة مباشرة وعلى الأرض الأوروبية ذاتها ، وقد كان صراع المسلمين مع المسيحيين فى معظمه قبل ذلك التاريخ خارج القارة الأوروبية .

وفى ظل هذه المواجهة بدأ الغرب الأوروبى يضع خططه لوقف المد الإسلامى ، ومنع الإسلام من الانتشار فى بقية القارة الأوروبية ، وهى المشكلة التى أطلقوا عليها اصطلاحًا اسم « المشكلة الشرقية » أو «المسألة الشرقية » .

ومن أول أسلحة المواجهة الأوروبية مع الخلافة العثمانية دفع المستشرقين إلى التخصص في الدراسات العثمانية ، بهدف تحليل أوضاع الخلافة العثمانية في الداخل ومعرفة أحوالها في البلاد الأوروبية التي وقعت تحت سيادتها ، ومعرفة تأثيرها في البلاد الأوروبية الواقعة على حدود الخلافة العثمانية . وقد بدأ المستشرقون في بذل الجهود العلمية المضنية في تغطية الأوضاع السياسية ، والاقتصادية ، والدينية، والاجتماعية لبلاد الخلافة العثمانية للتعرف على مواطن الضعف فيها والبحث عن سبل تقويض الخلافة من الداخل ، وإثارة النزعات القومية عند الشعوب الخاضعة لها ، واستقطاب الشعوب العربية والإسلامية ضدها ، والعمل على تغريب المجتمع التركي من الداخل ، إلى أن نجح الاستشراق في التمهيد لوضع نهاية سياسية للخلافة العثمانية من خلال الدراسات المجتمعية التي قدمها الاستشراق لدوله الغربية ، والتي استخدمها استخدامًا جيداً في تحقيق إضعاف الخلافة سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا، وأيضًا في إنجاز مهمة تغريب المجتمع التركي ، وإبعاده تدريجيًا عن الإسلام . والحقيقة أن عملية الإضعاف السياسي والاقتصادي ، تزامنت مع عملية التغريب حتى غدا المجتمع التركي مجتمعًا منتميًا إلى الغرب بعد أن هجر سياسته الإسلامية وتبني علمانية أوربية انعزل بها عن دينه ، وارتمى في أحضان الثقافة والنظم الغربية . وبسقوط الخلافة العثمانية كانت خسارة المسلمين عظيمة ؛ فقد أدى غياب الخلافة في الواقع السياسي للأمة

الإسلامية إلى غياب الدولة التى تجمع شمل المسلمين فى وحدة قائمة على أساس من العقيدة[١٩].

وقد استقطبت الدراسات العثمانية جل المدارس الاستشراقية فى الغرب ، فقد اهتم بها الاستشراق النصرانى باعتبارها خطرا مهدداً للنصرانية فى أوربا القارة المسيحية . وقد كانت أوربا معقل النصرانية والمدافع عنها ، بل والمهاجم باسمها فى حملات صليبية وغيرها لنصرة النصرانية وفرض السيادة الدينية والسياسية على الشعوب الإسلامية ، كما ظهر هذا بوضوح فى الحروب الصليبية وفى الحملات الاستعمارية الحديثة على العالم الإسلامى ، خاصة بعد الضعف الذى أصاب الخلافة العثمانية وتقسيم الغرب لأملاكها ، وبداية مرحلة استعمارية جديدة بسبب غياب الخلافة العثمانية الحامية للشرق والمدافعة عنه .

واهتم الاستشراق اليهودى كذلك بالدراسات العثمانية حيث استوطن عدد كبير من اليهود المطرودين من الأندلس في تركيا وبدأوا يخدمون الدول الأوروبية فى إضعاف الخلافة العثمانية من الداخل. وقد ظهرت قوة الدور اليهودى فى إسقاط السلطان عبد الحميد ، وفى الإيقاع بين العرب والأتراك وفى نشر العلمانية فى تركيا [٢٠]. كما يظهر دور اليهود أيضًا فى استغلال ظروف ضعف الخلافة العثمانية فى التمهيد لإقامة الكيان الصهيونى فى فلسطين . وقد كانت الخلافة العثمانية عقبة وسداً منيعًا أمام كل المحاولات الصهيونية لتحقيق هذا الهدف ،

كما وقفت أمام كل محاولات تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

كما اهتم الاستشراق الشيوعى اهتمامًا عظيمًا بالدراسات العثمانية ، ويمتد الاهتمام بهذه الدراسات إلى فترات قديمة سابقة على ظهور الأيديولوجية الشيوعية . فقد نشط الاستشراق الروسى منذ أن انضمت عدة بلاد أوربية شرقية إلى الخلافة العثمانية . ويمكن أن تعد الأعمال الاستشراقية الروسية خلال هذه الفترة أعمالاً استشراقية نصرانية تحمل نفس أهداف الاستشراق الغربى النصرانى ، وتسعى إلى تحليل أوضاع الخلافة فى مقرها الأساسى ، وفى المناطق التى خضعت لها من أوربا ، بل وفى العالم العربى والإسلامى، وتعمل على مساعدة الساسة فى أوربا على إضعاف الخلافة وتقويضها ، والعمل على انهيارها. وبعد ظهور الشيوعية اتجه الاستشراق الشيوعى إلى الدراسات العثمانية التى برز فيها بحكم العلاقات التى نشأت لعدة قرون بين بلاد أوربية شرقية والخلافة العثمانية، وبحكم التأثيرات العثمانية الثقافية فى القارة الأوروبية ، وأيضًا بسبب العداء المستحكم بين البلاد الروسية والخلافة العثمانية التى انتزعت السيادة من الروس فى العديد من المناطق ، ونشرت الإسلام فى كثير من الولايات التابعة لروسيا ، والتى نشأ عنها فى التاريخ المعاصر بعد سقوط الشيوعية عدة دول إسلامية مستقلة هى جمهوريات قازاقستان ، وأوزبكستان ، وطاجيكستان ، وتركمنستان، وقرغيزيا ، وآزربيجان .

٤ - تجزئة الأمة الإسلامية :

بالقضاء على الخلافة العثمانية ".رمز إقامة شرع الله وجمع شمل المسلمين "(٢١) تحت راية الإسلام ، بدأت عملية تجزئة الأمة الإسلامية إلى عدة أمم وشعوب تجمع بعضها مصالح قومية ، وتجمع البعض الآخر عرقيات وأنساب ، ويجتمع بعضها على مذاهب وأيديولوجيات ، وتفرقت الأمة الإسلامية شيعًا ، وانحصر دور الدين فى جمع المسلمين على هدف واحد ، وانتصرت القوميات والشعوبيات واختلاف الأجناس والألوان واللغات ، وهى كلها عناصر نجح الإسلام فى تذويبها والقضاء عليها وإقامة أمة إسلامية واحدة على أساس من وحدة العقيدة .

ولم يتوقف دور الاستشراق عند حد العمل على تجزئة الأمة الإسلامية ولكنه عمل على إبعاد الشعوب الإسلامية - التى استقلت عن الخلافة العثمانية وأصبحت تابعة للاستعمار الغربى - عن التوحد دينيًا عن طريق نشر الحضارة الغربية فيها وتحويلها بالتدريج إلى النظم الغربية فى السياسة والاقتصاد والتعليم ، واستبدل قيمها الاجتماعية الإسلامية بقيم غربية . وكانت تركيا ذاتها من أول البلاد الإسلامية التى توجهت إلى الغرب متبنية نظمه وهاجرة للنظم الإسلامية التى سارت عليها عبر قرون الخلافة ، واستسلمت تماما لعملية فصل الدين عن الدولة ، وتحولت إلى بلد علمانى خالص ، وسرعان ما أصاب هذا المد العلمانى معظم بلاد المسلمين منذ سقوط الخلافة العثمانية وإلى وقتنا الحالى . وقد نتج عن هذا التبنى للفكر العلمانى فى مجال السياسة أن افترقت مصلحة

الأمة الإسلامية إلى عدة مصالح سياسية متضاربة، وتوزعت البلاد الإسلامية بين عدة محاور سياسية ، ولم تعد تربطها رابطة، ودخل بعضها في حروب ضد بعض بسبب اختلاف الانتماءات السياسية ، وتضارب المصالح القومية ، وظهور العديد من المحاور الإقليمية التي استقطبت العديد من البلاد العربية والإسلامية وأبعدتها عن مصلحتها الإسلامية الأساسية. وقد ظل هذا حال الشعوب الإسلامية منذ سقوط الخلافة العثمانية التي وحدت المسلمين سياسيًا ، وأصبح المسلمون بعدها بدون رابطة تجمعهم وتوحد صفوفهم فى وجه أعدائهم ، فأصبحوا لقمة سائغة للاستعمار الذى سرعان ما تقاسم أملاك الخلافة الساقطة واستعمرها وأخضعها سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا لعدة محاور متناقضة إمعانًا فى التجزئة ، وبعد انحسار الاستعمار وجدت الشعوب الإسلامية نفسها مرتبطة ثقافيًا وفكريًا بعدة ثقافات متناقضة وسياسات متباينة . ولم تتمكن حتى الآن من العودة إلى نظامها الإسلامى الأساسى الذى كان سبب عظمتها ورفعتها فى الماضى والذى بدونه لن تقوم لها قائمة .

٥ - نشر النظم السياسية الغربية فى المجتمعات الإسلامية :

قدم الاستشراق العديد من الدراسات الناقدة للنظام السياسى الإسلامى ، وكان الهدف الأساسى لهذه الدراسات تشويه النظام السياسى الإسلامى ، وإثارة الشبهات حوله ، ومحاولة إظهاره فى صورة النظام المتخلف العاجز عن مواجهة قضايا العالم الحديث ، وتقديم البديل

الغربى لهذا النظام الإسلامى ، وذلك باظهار أفضلية النظام السياسى الغربى ومناسبته للعالم الحديث ، ومحاولة فرض هذا النظام على الشعوب الإسلامية بعد إسقاط الخلافة العثمانية .

ويلاحظ أن النقد الاستشراقى للنظام السياسى فى الإسلام منطلق من وجهة نظر غربية خالصة ترغب فى سيادة النظام الغربى فى العالم . وهو نقد خالٍ من الموضوعية العلمية ، ويعانى من عدة أخطاء منهجية من أهمها تفسير النظام السياسى فى الإسلام فى ضوء خلفية استشراقية سياسية غربية لا تصلح للحكم على نظام سياسى تابع لحضارة مختلفة ، وصادر عن دين معين هو الإسلام، فى الوقت الذى لا يرتبط فيه النظام الغربى بمصادر دينية : فهو نظام وضعى تم تطويره فى ظل الفصل التام بين الدين والدولة ، وعدم الاعتراف بالدين كمصدر للفكر السياسى ، الأمر الذى أدى إلى غياب الرقيب الدينى والأخلاقى على العمل السياسى ، واتجاه السياسة فى الغرب إلى تحقيق المصلحة القومية على حساب الدين والأخلاق، واعتبار الغاية النهائية مبررة لكل الوسائل المتخذة فى سبيل تحقيق هذه المصلحة .

وفى ضوء هذه الخلفية السياسية الغربية يخطئ المستشرقون حين يحكمون على السياسة فى الإسلام من وجهة نظر غربية واستنادا إلى مبادئ مرفوضة إسلاميًا ، ومن أهمها مبدأ فصل الدين عن الدولة(٢٢). والحكم على نجاح النظام الإسلامى أو فشله يجب أن يتم من داخل النظام السياسى فى الإسلام ، وفى ضوء تطوره ومسيرته فى التاريخ

الإسلامى ، وفى ضوء مدى قربه أو بعده من مصادره الدينية الأساسية ، وأيضًا فى ضوء مدى التزامه بالدين والأخلاق عند المسلمين .

وقد تأثر المستشرقون بفكرة الديموقراطية الغربية واعتبروها المقياس الناقد والمعيار الذى تنقد فى ضوئه كل النظم السياسية الأخرى ومن بينها النظام الإسلامى . وهنا يظهر خطأ استشراقى آخر فى عملية المفاضلة بين الديموقراطية الغربية ونظام الشورى فى الإسلام ، وتفضيل الديموقراطية على الشورى [٢٣]. والمفاضلة بين النظامين وترجيح الديموقراطية عملية لا تخضع لمقاييس نقدية موضوعية ولا تأخذ فى الاعتبار مسيرة كل من الشورى والديموقراطية فى التاريخ ، وإنما هى تنطلق من مبدأ السيادة الغربية ، والرغبة فى نشر قيم الغرب فى مجال السياسة والحكم دون النظر فى إيجابيات نظم الحكم الأخرى وبخاصة نظام الحكم فى الإسلام . وينطلق الاستشراق فى نقده للحكم فى الإسلام من الشبهة العامة التى تقول بأن الإسلام لا يملك فكرًا سياسيًا ، وأن النظرية السياسية فى الإسلام ليست أصيلة وإنما مأخوذة من نظم أخرى أجنبية . والهدف من إثارة هذه الشبهة العامة تشويه الدين الإسلامى ، ونسبة ما نشأ عنه من نظم ونظريات إلى أديان وحضارات أخرى ، ورد منجزات الإسلام فى مجال السياسة والحكم إلى مصادر أجنبية . وهذه الشبهة العامة لا تتفق مع واقع الحال فى الدين الإسلامى الذى طور نظامًا للحكم ليس مسبوقًا وهو نظام الخلافة ، وهى شبهة تتناقض ومسيرة التاريخ الإسلامى الذى اعتمد الخلافة كنظام للحكم استمر منذ

بداية الخلافة الراشدة وحتى سقوط الخلافة العثمانية . فهى تمثل أطول نظام للحكم فى تاريخ العالم ، وقد ظل نظاما فعالا وقويا ، ولم توضع له نهاية إلا على يد الغرب الذى تآمر لإسقاطه ولم ينجح فى ذلك إلا مؤخراً بعد أن أصاب الوهن والضعف الأمة الإسلامية فى تاريخها الحديث .

وفى ظل الخلافة أقام المسلمون دولة ساست أمور الدين والدنيا بنجاح منقطع النظير . وهى دولة اختلفت فى مبناها عن كل الدول التى سبقتها كما اختلفت عن النظام السياسى الغربى ونظام الدولة الذى تمخض عنه . ومن أهم ما ميز الدولة الإسلامية عن غيرها فى الشرق والغرب قيامها على وحدة العقيدة فى الوقت الذى ركزت فيه النظريات السياسية الأخرى على وحدة الشعب ، أو وحدة الإقليم ، أو وحدة العرق ، أو الوحدة القومية بشكل عام . ولقد نجحت النظرية السياسية فى الإسلام فى جعل الكتاب والسنة مرجعا للحكم ، وقضت على كل الفوارق الإنسانية التى تفاخر بها البشر على بعضهم البعض من عناصر قومية أو شعوبية أو لونية أو لسانية (٢٤). وكانت وظيفة الخلافة " حراسة الدين وسياسة الدنيا بهذا الدين"(٢٥)، ولم تكن حراسة لقومية ، أو شعوبية ، أو لمصلحة إقليمية أو غير ذلك من المصالح التى حرصت عليها نظم الحكم الأخرى . ومن فضائل النظرية السياسية فى الإسلام الموازنة بين مصلحة الدين ومصلحة الدنيا ، والحرص على تحقيق سعادة الإنسان فى الدنيا والدين والتوفيق بين متطلبات الإنسان الروحية

والمادية . ومن فضائلها أيضًا الاستناد إلى القاعدة الأخلاقية فى الحكم؛ إذ تركز النظرية السياسية فى الإسلام على تحقيق الأعمال السياسية النافعة والمؤدية إلى تحقيق سعادة الإنسان فى الدنيا والدين ، وجعلت من الدين والأخلاق رقيبًا على العمل السياسى . والسيادة فى الحكم تنبع من ارتباط الحكم بالشريعة الإسلامية وتطبيقه لها ، بينما تركت السيادة فى الغرب إما فى يد الشعب باسم الديموقراطية ، أو بيد الحاكم أو رئيس الدولة باسم الدكتاتورية ، وكلاهما يسهل وقوعه فى الخطأ لارتباطه بمقاييس دنيوية وضعية ولاجتهادات إنسانية تحتمل الصواب والخطأ ، كما هو واقع وملاحظ فى أمر الديموقراطية والدكتاتورية فى تاريخ العالم قديمًا وحديثًا .

الفصل الثالث

الآثار الاجتماعية للفكر الاستشراقى
فى المجتمع الإسلامى

للاستشراق أهدافه الاجتماعية الواضحة والتى من أجلها وجه المستشرقون جانبا لا بأس به من بحوثهم لدراسة المجتمعات الإسلامية ، والتعرف على أوضاعها المختلفة، ووضع الخطط لإحداث التغييرات الاجتماعية من خلال معرفة علمية واعية بطبيعة المجتمعات الإسلامية الحديثة من حيث بنيتها ، ومواطن الضعف فيها بغية تغيير المجتمع الإسلامى ، وتحويله بالتدريج إلى مجتمع غربى يأخذ بالنظم الاجتماعية الغربية ، ويتبنى قيم الغرب الاجتماعية .

لقد تركزت جهود الأعمال الاستشراقية فى المجال الاجتماعى حول وضع الخطط الساعية إلى عزل الإنسان المسلم عن مجتمعه الإسلامى ، وإبعاده عن عاداته وتقاليده الاجتماعية الإسلامية ، ووضع أسس اجتماعية جديدة للحياة الإسلامية . وكما هى العادة فى الكتابات الاستشراقية تبدأ عملية تغيير المجتمع الإسلامى من خلال توجيه السهام الاستشراقية إلى النظام الاجتماعى فى الإسلام ، فتعمل على تشكيك المسلمين فى نظمهم الاجتماعية ، وإثارة الشبهات حول القيم الاجتماعية فى الإسلام ، وتشويه صورة المجتمع المسلم ، ثم تقديم المجتمع الغربى فى صورة مثالية نموذجية لا تتفق مع الواقع الاجتماعى للحياة الغربية ،

وعن طريق المغالاة فى تصوير محاسن المجتمع الغربى ، وأفضليته على المجتمع الشرقى عامة والمسلم خاصة ، وتصوير المجتمع الشرقى بكل أشكال التخلف والجمود ، ورد هذا التخلف والجمود إلى قيم الإسلام الثابتة الجامدة غير المتغيرة من وجهة نظر الاستشراق[٢٦]، وفى نفس الوقت تمجيد الحريات الغربية واعتبارها أساسًا للتقدم فى الغرب ، والتعتيم على مساوئ الحياة الاجتماعية فى الغرب ؛ حيث إن وسائل الإعلام فى الغرب تقدم الغرب لأبناء الشرق فى صورة خيالية نموذجية خالية من مساوئ المجتمع ومظالمه المتعددة ومفاسده لإحداث الانبهار الضرورى لدى الإنسان المسلم وذلك لجذبه إلى الحياة الغربية والعمل على إبعاده عن قيم المجتمع المسلم ، ودفعه إلى تبنى قيم المجتمع الغربى .

وقد أثرت هذه الصورة المعطاة للحياة الغربية وللمجتمع الغربى فى عقول ووجدان العديد من المسلمين الذين وقعوا تحت التأثير الاستشراقى والفكر الغربى الوافد . وبدأت عملية التخطيط لإقامة مجتمعات إسلامية تقوم على أساس من الفكر الغربى ومبادئ الحضارة الغربية وأسس المجتمع الغربى . ونظرا لاختلاف الفكر الغربى وتعدد الجبهات الاستشراقية فقد جاءت التأثيرات الاجتماعية فى حياة المسلمين متناقضة ومتفاوتة بشكل هدد الحياة الاسلامية ووحدتها تهديدا عظيما. فقد انقسمت المجتمعات الإسلامية فى العصر الحالى إلى نوعين متناقضين من المجتمعات : الأول تبنى قيم المجتمع الغربى الرأسمالى ، أو تلك التى انجذبت إلى النظام الرأسمالى وأخذت بقيمه الاجتماعية والاقتصادية . والنوع الثانى من المجتمعات الإسلامية وقع تحت تأثير

الشيوعية وانتهى إلى الأخذ بنظم الشيوعية فى المجال الاقتصادى ، الأمر الذى أدى إلى إحداث تغييرات اجتماعية تتناسب والقيم الشيوعية. ويضاف إلى هذين النوعين مجتمعات إسلامية اختلطت فيها القيم والمذاهب الاجتماعية ، فتم خلق مجتمعات لاهوية لها ، فلا هى غربية ولا هى شرقية ، ولا هى احتفظت بقيم المجتمع الإسلامى .

ويجب أن نذكر أن المستشرقين توزعوا بطبيعة الحال بين النظام الرأسمالى والنظام الشيوعى . وسعى كل فريق إلى كسب المجتمعات الإسلامية إلى نظامه عن طريق الدراسة العلمية للأوضاع الاجتماعية فى البلاد الإسلامية ، ووضع الخطط العلمية المؤدية إلى تغيير البنية الاجتماعية وفقا للرؤية الاستشراقية الغربية الرأسمالية أو الشيوعية أو الاشتراكية . وقد استفاد الساسة فى الغرب من هذه التحليلات الاجتماعية للمجتمعات الإسلامية والتى مكنتهم من فهم المجتمع الإسلامى ، والتعرف على أوضاعه ومشاكله ، ووضع الخطط لتغييره حسب المصالح السياسية والرؤى السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد الأوروبية المختلفة .

ومما لاشك فيه أن وقوع البلاد الإسلامية تحت الاستعمار الأوروبى لفترة طويلة من الزمن قد مكّن الاستعمار من إحداث التغييرات الاجتماعية المطلوبة ، وتنفيذ الخطط الاستشراقية فى هذا الخصوص . فأقيمت مجتمعات إسلامية تابعة لمجتمع المستعمر وحضارته وثقافته وعاداته وتقاليده وقيمه . وقد قام المستشرق بدورين فى هذا العمل التغريبى : الدور الأول هو دور التخطيط الفكرى لعملية التغريب .

والدور الثانى دور تنفيذى ساهم فيه المستشرقون الذين عملوا مع المستعمر كخبراء ، أو قادة عسكريين ، أو ساسة فجمعوا بين الاهتمامات والدراسات العلمية للمجتمعات الإسلامية وبين تنفيذ الخطط الموضوعة لتغيير المجتمعات الإسلامية .

١ - الخلفية الاجتماعية للمستشرقين وأثرها فى فهم النظام الاجتماعى فى الإسلام :

يندرج الفكر الاجتماعى عند المستشرقين فيما يخص المجتمعات الإسلامية تحت نوعين من الدوافع : الأول دافع سيادى مرتبط بالرغبة فى نشر الثقافة الغربية للمستشرق ، وبالتالى تغيير المجتمعات الإسلامية ، وتحويلها بالتدريج إلى مجتمعات تتبنى قيم المجتمع الغربى وثقافته . أما الدافع الثانى المحرك للدراسات الاجتماعية الاستشراقية فهو دافع فكره مرتبط بالخلفية الثقافية للمستشرق والتى تدفعه إلى رؤية المجتمعات الإسلامية من زاوية غربية خالصة ، وإسقاط الرؤى الاجتماعية السائدة فى الغرب على فهم ودراسة المجتمع المسلم .

وتأثير الخلفية الاجتماعية للمستشرق عظيم فى رؤيته للمجتمع المسلم . خاصة وأن عدداً كبيراً من المستشرقين درسوا المجتمع الإسلامى دون أن يقوموا بزيارته ، والحياة بين أهله ، والتعرف - على الطبيعة - على قيمه وعاداته وتقاليده ، فأتت دراساتهم قاصرة ونظرية وخيالية فى معظم الأحوال ، وغير مسايرة لواقع المجتمعات الإسلامية . فالعديد من الصور الاجتماعية التى قدمها الاستشراق للمجتمع الإسلامى مأخوذة

من مصادر قديمة ولعصور زمنية ماضية ، كثير منها متأثر برؤى غير علمية مستمدة من مصادر أدبية وحكايات شعبية لا تعطى صورة صحيحة للمجتمع المسلم فى زمانها . وهناك مستشرقون عاشوا لفترة زمنية فى أحد المجتمعات الإسلامية وحاولوا تصوير المجتمع كما رأوه ، ولكنهم فشلوا فى ذلك لأسباب عديدة ، منها عدم التعمق فى فهم المجتمع لصعوبة ذلك بسبب الحواجز النفسية واللغوية وعدم القدرة على الوصول إلى روح المجتمع المسلم ، فأتت دراساتهم سطحية تعالج موضوعات ظاهرية دون التوغل فى فهم المجتمع . وعزل بعض المستشرقين فى دراساتهم الاجتماعية فصل المجتمع عن الدين وحاولوا فهمه من خلال رؤية غربية تفصل الدنيوى عن الدينى فأتت أعمالهم وكأنها وصف غربى لمجتمع إسلامى تحمل طابع التزييف والتحريف لطبيعة المجتمع المسلم . وبالإضافة إلى فرض الرؤية الاجتماعية الغربية أصيب بعض المستشرقين بداء التعصب الفكرى والاجتماعى فلم يجدوا فى المجتمع المسلم إلا السلبيات من وجهة نظرهم فأبرزوها وقدموا المجتمع المسلم من خلالها ، وهو من باب التشويه المغرض المتأثر بأحقاد نفسية تجاه المجتمع المدروس تظهره فى أسوأ صورة ممكنة وتنفى عنه كل حسناته وفضائله(٢٧).

وتأتى الأحكام الاستشراقية على المجتمعات الإسلامية متأثرة بالرؤية الاجتماعية الغربية وهى رؤية مخالفة للرؤية الإسلامية من حيث أنها تنظر إلى المجتمع مستقلا عن الدين ، كما أن علاقاتها بالأخلاق علاقة نسبية متأثرة باختلاف المدارس الغربية حول مفهوم الأخلاق ودوره

في البناء الاجتماعى فى حين أن النظام الاجتماعى فى الإسلام نظام نابع من الدين وملتزم بالأخلاقيات الاجتماعية التي يقرها الدين نفسه . فالأسرة مثلا كوحدة اجتماعية تقوم فى الإسلام على أسس دينية وأخلاقية، وكذلك المبادئ المتحكمة فى العلاقات الأسرية وفى العلاقات الاجتماعية عامة مرتبطة بالدين والأخلاق تستمد منهما القيم الاجتماعية المنظمة للحياة الإنسانية فى المجتمع .

ويتأثر المستشرق أيضًا بمفهوم الحرية الاجتماعية السائد فى الغرب والمنفصل عن الدين والأخلاق ، والمرتبط بقيم وضعية نسبية لا تمنع من وقوع الضرر بالآخرين وهو القيد الاجتماعى الوحيد لهذه الحرية الاجتماعية التى أدت إلى تدمير العلاقات الإنسانية فى المجتمع الغربى(٢٨) وقوضت نظام الأسرة وأحالته إلى نظام اجتماعى بالٍ، وأخضعته لمفهوم الحرية فاختلطت القيم داخل الأسرة ، وهجر الأبناء أسرهم فى سن التكوين ، أو عاشوا داخل هذه الأسر يمارسون حريتهم المطلقة دون قيود ودون اعتراف بسلطة للأب والأم .

فى ظل هذه الخلفية الاجتماعية درس المستشرقون المجتمعات الإسلامية ، وكونوا رؤية استشراقية غريبة عنها ، وتصوروا إمكانية سيادة النموذج الاجتماعى الغربى وفرضه فرضًا على المسلمين . ويعتبر المجال الاجتماعى من أخطر المجالات التى اشتغل بها المستشرقون هادفين إلى تغيير المجتمعات الإسلامية من الداخل ، وقد مكنهم الاستعمار الغربى للعالم الإسلامى من إحداث التأثير الاجتماعى المطلوب ، وهو تأثير سلبى خطير شوه المجتمعات الإسلامية، وأبعدها

عن شكلها الاجتماعى الإسلامى وجعلها تابعة وخاضعة لنماذج اجتماعية غربية ولقيم وعادات وتقاليد مستوردة .

٢ - الآثار الاجتماعية السلبية للفكر الاستشراقى :

لقد نتج عن الفكر الاستشراقى فى المجال الاجتماعى عدة تأثيرات سلبية كان لها دورها فى تغيير صورة المجتمع المسلم فى العصر الحديث.

أ- تغريب المجتمع المسلم من خلال التأثير على قيم الأسرة المسلمة:

لقد بدأت عملية التغريب بالنقد الاستشراقى الشديد لحياة المجتمع المسلم وقيمه ، وإثارة العديد من الشبهات الاستشراقية حول الحياة الإسلامية ، واتهام الدين الإسلامى بأنه سبب تخلف المسلمين الاجتماعى فى العصر الحديث ، وتقديم المجتمع الغربى كبديل للمسلمين ، والربط بين الحياة الغربية والتقدم الاجتماعى ، واعتبار القيم الاجتماعية الإسلامية قيمًا بالية لاتصلح للعصر الحديث ، والتأكيد على ضرورة استبدالها بالقيم الاجتماعية الغربية . ونظراً لأن الأسرة هى أساس المجتمع المسلم فقد عالجت الدراسات الاستشراقية الاجتماعية الأسرة ، وانتقدت القيم المتحكمة فى العلاقات الأسرية ، وهاجمت السلطة التى يتمتع بها الأب داخل الأسرة واعتبرتها من أسباب تخلف الأسرة المسلمة، وطالبت بإطلاق الحريات داخل الأسرة ، ونادت بتغيير القيم الاجتماعية المتحكمة فى الأسرة المسلمة . والهدف الحقيقى للدراسات الاستشراقية الاجتماعية تغيير القيم الأسرية، وتفكيك العلاقات

الأسرية، واتخاذ النموذج الغربى للحياة الاجتماعية داخل الأسرة وخارجها . وهو نموذج خطير وضار بالمجتمع المسلم وقد أصاب المجتمع الغربى بالمفاسد الاجتماعية والأمراض الاجتماعية التى ترتبت على تدهور مكانة الأسرة فى الغرب.

ونرى ضرورة التنبيه إلى خطورة تبنى هذا النموذج الأسرى فى الغرب والذى ضاعت فيه القيم ، واختلطت الحقوق والواجبات استنادا إلى مبدأ الحرية الشخصية لأفراد الأسرة . وقد تسببت هذه الحرية فى ضياع الشخصية الأسرية ، والتخلص من قيود الأسرة التى تمثلت فى الغرب فى سلطة الأب والأم داخل الأسرة ، وتحقيق مايسمى بالاستقلال الشخصى لعضو الأسرة داخل أسرته وحريته فى ترك الأسرة وهجرها تحقيقا لاستقلاليته وحريته ، وقد انطبق هذا على الجميع ، فالأب يترك أسرته وكذلك الأم تحقيقًا لرغبات شخصية خالصة سميت بحريات شخصية ، ويترك الأبناء والبنات أسرهم فى وقت مبكر من حياتهم قبل أن يكتمل نموهم النفسى والاجتماعى ، وقبل أن يحقق كل منهم نصيبه الكامل من التربية والتعليم والأمان الاجتماعى والاقتصادى ، وقبل أن يتلقى ما يكفيه فى حياته من التعاليم الدينية الأخلاقية فى حالة تمسك الأسرة أصلاً بدين من الأديان أو بنظام أخلاقى معين .

ويجب التنبيه أيضًا إلى أن من أهم مساوئ هذا النموذج الأسرى الغربى الذى يراد تصديره إلى المجتمع الإسلامى ضياع قيمة الزواج الاجتماعية كعامل أساسى فى بناء الأسرة السليمة اجتماعيًا . فقد

تدهور النظام الأسرى إلى الحد الذى أصبح هدف الزواج كمؤسسة اجتماعية إشباع الرغبات الجنسية للزوجين ، وعدم الاكتراث بتكوين أسرة بالمعنى الاجتماعى المعروف ؛ إذ يلاحظ أن كثيراً من الزيجات الحديثة فى الغرب تقوم على شرط أساسى وهو عدم الإنجاب . وينتج عن الإخلال بهذا الشرط هجر الأسرة أو فرض الإجهاض كوسيلة للتخلص من الجنين . والحقيقة أن الزواج تدهور فى الغرب إلى أن أصبح معبراً عن مجرد رغبة شخصين فى الحياة معًا بدون إنجاب ، وربما لفترة زمنية محددة تنتهى بانتهاء الدافع إلى هذا الرباط غير المقدس ألا وهو إشباع الرغبة الجنسية . وهى رغبة يمكن إشباعها بسهولة خارج إطار الأسرة مما يجعل نظام الأسرة لا قيمة له على الإطلاق حتى فى مسألة الإشباع الجنسى التى يمكن تحقيقها بعيداً عن القيود الأسرية ، وما يترتب على نظام الأسرة من التزامات وواجبات وعلاقات تكاد تكون مفروضة فرضًا .

ومن الواجب الإشارة إلى أن بعض هذه القيم الغربية انتقلت إلى الأسرة المسلمة بتأثير من الفكر الاستشراقى . ونذكر على سبيل المثال التفكك الذى بدأت تعانى منه الأسرة المسلمة خاصة فى مجال العلاقات الأسرية حيث تعمد بعض الأسر المسلمة إلى إطلاق الحريات للأبناء والبنات داخل الأسرة، والسماح لهم بالحريات الشخصية دون رقابة من الأب والأم . ومن بين هذه الحريات السماح لهم بالتأخر خارج المنزل ، وباختيار الأصدقاء والصديقات دون رقابة من الأسرة، والاشتراك فى الحفلات وغيرها من المناسبات غير الإسلامية ، والاختلاط بالجنس الآخر والدخول فى علاقات مع الجنس الآخر ، واختيار الأزياء غير المناسبة ،

والاعتماد على وسائل غربية فى التربية وفى تنشئة الأبناء والبنات داخل الأسرة . ويظهر هذا التأثير أيضًا فى علاقة الأب بالأم فى حياة بعض الأسر المسلمة ، حيث تدهورت سلطة الأب داخل الأسرة ، وافتقد الرجال صفة القوامة ، وسمحوا لزوجاتهم بالعمل والإنفاق على الأسرة أو المشاركة فى نفقات الأسرة ، وتخلوا بذلك عن أول وأهم واجباتهم الأسرية. كما نظمت حياة الأسرة المسلمة فى نفس الإطار الذى سارت عليه الأسرة الغربية؛ حيث يصر بعض الأزواج على عدم الانجاب ، وفى حالة الإنجاب يتم تحديد النسل ، ويقع الإهمال فى تربية الأبناء والبنات بسبب عمل الزوجة وممارستها الحرية فى الخروج من المنزل وبدون إذن الزوج فى معظم الأحوال ، وترك الأبناء والبنات فى رعاية مربية أو خادمة جاهلة أو أجنبية تترك أثرها الكبير فى حياة الأبناء والبنات وهو أثر سلبى بكل تأكيد . وتصر بعض الأسر المسلمة على عدم الالتزام بواجبات الدين وفروضه : من ترك للصلاة والصوم ، وإهمال لبقية الفروض الدينية ، وعدم الالتزام بالمبادئ الأخلاقية ، وبالتالى العجز عن تربية الأبناء تربية دينية وأخلاقية لائقة ، وتميل العديد من الأسر المسلمة إلى عدم الالتزام بالحجاب أو بالزى الإسلامى اللائق الذى يحفظ للمرأة وقارها واحترامها وعفتها . هذه الظواهر الاجتماعية وغيرها لاشك فى أنها بدأت تنتشر فى المجتمعات الإسلامية وبصورة مهددة لنظام الأسرة فى الإسلام ، وهى ظواهر اجتماعية سلبية لابد من تقويمها ومنع انتشارها بكل الوسائل الشرعية والأخلاقية الممكنة ومن خلال التوعية الإسلامية الحريصة على إعادة الاحترام والتقدير إلى الأسرة المسلمة .

ب - الهجوم الاستشراقى على المرأة المسلمة :

وامتداداً للهجوم الإستشراقى على نظام الأسرة فى الإسلام ركزت الأعمال الاستشراقية على دراسة وضع المرأة المسلمة داخل الأسرة وخارجها ، فاتهموا المرأة المسلمة بأنها أسيرة الرجل وأمته لا تتمتع بأى حقوق أو حريات ، وليست لها شخصية مستقلة عن الرجل ، واتهموها فى عقلها بأنها فى وضع عقلى متخلف فهى جاهلة غير متعلمة ، وهى عضو عاطل داخل المجتمع المسلم طالما أنها لا تتمتع بحقوق العمل والأنشطة المتاحة للمرأة فى الغرب .

ويركز النقد الاستشراقى على ضرورة المساواة بين الرجل والمرأة ، وتحض الدراسات الاستشراقية المرأة المسلمة على الثورة والتمرد على وضعها داخل المجتمع المسلم ، والمطالبة بحقوقها " الضائعة " والتشبه بالمرأة الغربية ، فتصبح عضواً كاملاً فى المجتمع له حقوق الرجل وعليه واجباته . وقد تأثر بهذه الدعوة الاستشراقية عدد من المفكرين أمثال سلامة موسى وقاسم أمين وغيرهم من أصحاب الدعوة إلى حرية المرأة . وبدأت فى الظهور شخصيات نسائية مسلمة تطالب بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل فى الحقوق . وتكونت الحركات النسائية التى تدافع عن مبدأ المساواة تأثراً بالفكرة الاستشراقية التى تسعى إلى تغريب المرأة المسلمة ، ومحو شخصيتها الإسلامية ، ودفعها إلى التمسك والمطالبة بنفس وضع المرأة الغربية .

وكالعادة فالاستشراق هنا واقع تحت تأثير وضع المرأة الغربية ، ويرى أنها نموذج يجب أن يحتذى به ، وأن ما حققته من مساواة وحقوق يجب أن يتسع ليشمل المرأة المسلمة والمرأة الشرقية عامة . ولذلك فالأحكام الاستشراقية الخاصة بوضع المرأة المسلمة أحكام متأثرة بالخلفية الاجتماعية للمستشرقين الذين يسقطون النظام الاجتماعى الغربى ووضع المرأة الغربية على وضع المرأة المسلمة فيطالبون بالمساواة بين الجنسين ، وبالحرية المطلقة للمرأة المسلمة ، ومنحها كل الحريات الممنوحة للمرأة الغربية دون مراعاة للاختلاف الجوهرى بين طبيعة النظام الاجتماعى فى الغرب عنه فى الشرق، واختلاف وضع المرأة الغربية عن وضع المرأة الشرقية ومكانتها فى المجتمع الشرقى عامة والإسلامى خاصة .

وبالإضافة إلى الوقوع تحت تأثير الخلفية الاجتماعية للبيئة الغربية يسعى الاستشراق إلى تقويض وضع المرأة المسلمة داخل الأسرة، والعمل على تفكيك نظام الأسرة فى الإسلام ؛ من خلال حث المرأة المسلمة على التمرد على هذا النظام والخروج عليه باسم الحرية ، وتصوير وضع المرأة المسلمة تصويراً مزيفًا لايعكس الحقيقة ، ويأخذ ببعض الظواهر الخارجية، ويعقد مقابلة ظالمة وتعسفية بين وضع المرأة الغربية بحرياتها المتعددة ووضع المرأة المسلمة بقيودها المكبلة بها من وجهة النظر الاستشراقية . فيظهر للمرأة المسلمة أنها فى وضع أدنى من المرأة الغربية فتطالب بحقوق المرأة الغربية وبالمساواة بالرجل وبالحريات الأخرى التى تعتقد خطأ أنها محرومة منها . ولاشك فى أن العديد من النساء

المسلمات وقعن تحت تأثير هذه المقابلات التى عقدها الاستشراق بين المرأة الغربية والمسلمة. بل نجد أن التأثير قد امتد إلى الرجال المسلمين الذين يطالبون للنساء بحقوق المرأة الغربية عن جهل بواقع المرأة الغربية التعيس ، وعدم تعمق وقلة فهم لطبيعة الحريات الممنوحة لها ، وعدم إدراك للمفاسد الاجتماعية والأخلاقية المترتبة والتى أدت إلى حدوث عكس ماهو مطلوب ألا وهو فقدان المرأة لكرامتها وشخصيتها بسبب حريات مشبوهة أدت إلى وقوع رذائل محرمة . وفيما يلى نبرز مساوئ الدعوة الاستشراقية إلى تحرير المرأة المسلمة من خلال مناقشة موضوعين أساسيين الأول : وضع المرأة فى الإسلام ومقابلته بوضع المرأة فى الغرب، وبيان محاسن وضع المرأة المسلمة ومساوئ وضع المرأة الغربية . والثانى مناقشة قضية هامة تثير العديد من الشبهات حول وضع المرأة المسلمة وهى مسألة تعدد الزوجات التى يركز عليها الاستشراق تركيزاً شديداً ، محاولين شرح الموقف الإسلامى من التعدد ، وبيان أسباب التعدد والضرورات التى تدعو إليه .

أولا : المقابلة بين وضع المرأة المسلمة والمرأة الغربية وبيان محاسن وضع المرأة المسلمة

يخطئ الاستشراق حين ينظر إلى المرأة فى الإسلام فى ضوء المرأة فى الغرب ، وفى ظل أوضاع غربية غير مقبولة إسلاميًا . فالمرأة الغربية حرة بالمعنى الغربى للحرية، وهو معنى مرفوض فى المجتمع الإسلامى ؛ إذ أنه يعنى خروج المرأة المسلمة على الحدود الدينية والأخلاقية للمجتمع المسلم . فالحرية الغربية فرضت على المرأة أوضاعًا تتنافى مع طبيعتها

كامرأة . فقد تمتعت المرأة بحرية ظاهرية فقدت فى مقابلها حقها كأنثى فى الرعاية والكفالة والقوامة ، ونالت استقلالها عن الرجل ففقدت مكانها الطبيعى داخل الأسرة ، وفقدت الحماية الاجتماعية والاقتصادية ، والأمان الاجتماعى والنفسى والاقتصادى الذى يكفله نظام الأسرة فى مقابل حرية وهمية واستقلال مفقود . وكل هذا قد تم للمرأة الغربية فى إطار من نظام للقيم يسمح للمرأة بالحصول على هذه الحريات دون أن يوفر لها الحماية أو يدفع عنها الأضرار الناجمة عن هذه الحريات . فالمرأة الغربية أصبحت وحيدة بدون حماية تمارس حريتها فى ظل مخاوف متعددة تكاد تطيح بكرامتها وتدفع بها إلى الهاوية بدون أسرة وبدون أبناء وبدون رعاية رسمية أو غير رسمية .

والنظرة الاستشراقية إلى المرأة المسلمة نظرة سطحية تأخذ ببعض المظاهر الخارجية لوضع المرأة دون التعمق فى فهم وضع المرأة داخل إطار النظام الاجتماعى ، وبنوع من الشمولية التى تؤدى إلى حسن الفهم ، وبعيداً عن عملية عزل بعض الجزئيات عن المفهوم الكلى أو النظرة الكلية للمرأة فى المجتمع المسلم . فالمستشرق يعزل بعض العناصر عن الرؤية الكلية ، ويحكم على وضع المرأة المسلمة من خلال هذه العناصر المعزولة مثل الحجاب ، وعدم الاختلاط ، وتعدد الزوجات ... إلى غير ذلك من المظاهر التى تبدو سلبية فى إطار النظرة الجزئية السريعة المفصولة عن الرؤية الشمولية لوضع المرأة فى الإسلام ، وفى مقابل ذلك تأتى النظرة الاستشراقية للمرأة الغربية فى ضوء عناصر جزئية تبدو

ايجابيـة فى شكلها المفصول عن الإطار العـام والرؤية الشمولية لوضع المرأة الغـربيـة . والنظرتان مـخطئـتـان لقيـامـهـمـا على أسـاس مـن مظاهر خارجية تأخذ بالظاهرى ولا تتعمق لتحصل على فهم سليم لأوضاع المرأة المسلمة .

والحقيقة أن المرأة المسلمة تتفوق فى وضعها على المرأة الغربية وعلى كل المستويات ؛ فالمرأة تتمتع بوضع إنسانى طيب وكريم فى ظل الإسلام الذى كرمها فى كل وظائفها فى المجتمع كأم وزوجة وأخت وابنة، وقد ضمن لها الإسلام حقوقها كاملة فى شئون الزواج والطلاق والميراث ، وحمتها الشريعة الإسلامية من خلال الأحكام والتشريعات التى تضمن لها حقوقها مع الرجل على كل المستويات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والعاطفية ، وهذه الحقوق مكفولة بواسطة الشريعة وليست متروكة لحرية الرجل وإرادته [٢٩].

والمرأة فى الإسلام إنسانة مستقلة ومسئولة مسئولية دينية ومدنية كاملة ، وقد اعترف الإسلام لها بكرامتها الكاملة وبشخصيتها المستقلة عن الرجل ، وقد قرن بينها وبين الرجل فى مواضع عديدة وعاملها على نفس المستوى مع الرجل فى الأمور الدينية والدنيوية .

وقد عاملها الإسلام المعاملة الشرعية المستقلة كإنسان مسئول دينيًا وأخلاقيًا وكثيرا ما خاطبها القرآن خطابًا مباشراً دون أن يعتبرها تابعة للرجل فى مسئولياتها ، وفى الوقت الذى منحت فيه حق التملك كلفت الرجل بحمايتها ورعايتها وقوامتها وتحمل مسئوليتها .

وهذا ليس من باب فرض السيادة للرجل على المرأة ، ولكن اعترافًا بأمور الفطرة وما يفرضه العقل السليم فى شأن المرأة بطبيعتها الضعيفة وقدراتها الجسمية المحدودة ، ومحدودية نشاطها ، والذى تفرضه ظروفها الخاصة وضرورة الحفاظ على كرامتها ، وصيانة شخصيتها داخل الأسرة والمجتمع . لقد حرص الإسلام على شرف المرأة وطهارتها وعفتها وعدم ضياع شخصيتها فى ظل الرجل من خلال التنظيم الدقيق لعلاقة المرأة بالآخرين داخل الأسرة وخارجها ، وقد أوصى القرآن الكريم والحديث النبوى بكل ما يحفظ للمرأة مكانتها وقيمتها فى المجتمع الإسلامى .

أما ما يدعيه الغرب من حرية شخصية للمرأة فهو لا يتناسب مع طبيعة المجتمع المسلم ، ولا يصح أن تقاس أوضاع المرأة المسلمة على أسس أجنبية يعتبرها الغرب صالحة للمرأة الغربية . فالمجتمع الغربى له قيمه الخاصة التى سمحت للمرأة بالاختلاط بالرجل فى العمل وفى الحياة عامة ، وجعلت العلاقات بين الرجل والمرأة علاقات مفتوحة تتم على أساس من الحرية الشخصية للرجل والمرأة وفى ظل نظام مفكك للأسرة يشجع على العلاقات الخاصة [٣٠]، ويجبر المرأة على الخروج على طبيعتها والتعامل مع الرجل ندا لند دون الاعتراف بالفوارق الأساسية بين طبيعة كل من الرجل والمرأة والتى اعترف بها الإسلام فحمل الرجل مسئولية المرأة أمًا وزوجة وأختًا وابنة ، وجعل الرجال قوامين على النساء واعتبر المرأة مسئولة عن بيتها وتربية أولادها ، كما منحها حق العمل فى الأعمال التى تناسب طبيعتها ولا تتنافى مع كرامتها . وحدد علاقة الرجل بالمرأة داخل نطاق الأسرة حفاظًا لكرامة المرأة وضمانًا لحقوقها ،

وحتى فى حالة عمل المرأة لم يلغ الإسلام مسئولية القوامة على الرجل ، وهو أمر ليس له وجوب فى الغرب ، فالرجل ليس مسئولاً عن المرأة فالمرأة لها عملها والرجل له عمله ، وداخل الأسرة يتحمل الرجل والمرأة تكاليف المعيشة وتربية الأبناء . فإعطاء حق العمل للمرأة سلب منها حقوقها المادية على الرجل، ورفع عن الرجل المسئولية المالية تجاهها.

أما القيود التى يتحدث عنها المستشرقون فهى ليست قيوداً ولكنها ضمانات للحفاظ على كرامة المرأة وسلامة المجتمع ، وسيادة الأخلاق والبعد عن المفاسد الأخلاقية والاجتماعية المدمرة للمجتمع فى النهاية(٣١). فالحجاب وعدم الاختلاط والقيود الخاصة بطبيعة عمل المراة كلها لا تهدف إلى النيل من حرية المرأة وحقوقها وإعطاء الرجال سيادة على النساء ، كما يدعى المستشرقون ، ولكنها ضوابط أخلاقية لحماية المرأة والمجتمع ، خاصة وأن الغرب -وبعض المجتمعات الإسلامية المتأثرة به - قد عرّض المرأة للعديد من المخاطر الاجتماعية بسبب حرية اللباس، والاختلاط، وإساءة استخدام المرأة فى أعمال ووظائف مهينة لها ولكرامتها مما ساعد على انتشار الفساد فى المجتمع من خلال السفور ، وارتداء المرأة للأزياء الخليعة المثيرة لفتنة الرجل ، وعمل المرأة فى السينما والمسرح ، وفى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة . ونشر الفساد من خلال بعض السلوكيات المرتبطة بالمرأة مثل تنظيم مسابقات الجمال وعروض الأزياء ، والمهرجانات المختلفة التى تظهر فيها المرأة فى أوضاع شائنة مثيرة للغرائز ، ومن خلال استغلال المرأة فى أفلام الجنس والعنف، والسماح بممارسة البغاء ، ولا يخفى ما لهذه الممارسات الدنيئة من تأثير مدمر على المجتمع الغربى .

أما ما يدعيه المستشرقون من وضع قيود على عمل المرأة فالمجتمع الإسلامى لم يمنع المرأة من العمل ، ولكن حدد لها المجالات التى تتناسب مع طبيعتها ، ولا تعرض كرامتها للمهانة ، ولا تجعلها تختلط بالرجل الأجنبى عليها ، لما ينتج عن ذلك كله من انتشار للرذيلة والفساد فى المجتمع ، ومن تحقير للمرأة وفقدان لكرامتها ، ومن تأثير سلبى على الأسرة . وقد أكد المجتمع المسلم على أن الأسرة هى ميدان المرأة وعملها الرئيسى حرصا على سلامة الأسرة وضمان التربية والتنشئة السليمة للأبناء ، وتأمين الأمان الاجتماعى والنفسى للأطفال ولرب الأسرة وللمجتمع ككل باعتبار الأسرة أساس الحياة الاجتماعية . وهى أمور افتقدها المجتمع الغربى بسبب الإفراط فى عمل المرأة وتحميلها المسئوليات المادية ، بالإضافة إلى المسئولية الاجتماعية . وقد أدى العمل إلى إهمال شئون الأسرة والأطفال ، وإلقاء تبعية التربية والتنشئة على الحضانات والمربيات ، وحرمان الأطفال من حنان الأمهات ، الأمر الذى أدّى إلى انتشار الأمراض النفسية والاجتماعية ، وتفكك الأسرة وتدهور العلاقات بين أعضائها .

ثانيا : مسألة تعدد الزوجات :

ومن المسائل المتعلقة بوضع المرأة فى الإسلام ، والتى أساء المستشرقون فهمها ، مسألة تعدد الزوجات ، فقد اعتبروا التعدد مظهراً من مظاهر الاضطهاد الإسلامى للمرأة وتحويلها إلى أمة للرجل ، وإهدار كرامتها ، وجعلها فى مرتبة تالية للرجل من حيث الأهمية والقيمة. وليس من جديد فى القول بأن النظرة الاستشراقية للتعدد مبنية على

أساس من رؤية سطحية لوضع المرأة المسلمة تعزل جزئيات من وضع المرأة وتناقشها داخل إطارها المحدد ، فتبدو سلبية ، مع أن واجب الدراسة العلمية الموضوعية أن تنظر إلى الأمر في شموليته ، وداخل إطاره العام حتى يتم الفهم الصحيح لموضوع التعدد . يقع الاستشراق مرة أخرى في خطأ المقارنة بين وضع المرأة المسلمة ووضع المرأة الغربية متجاهلاً في هذه الحالة فضائل التعدد ورذائل عدم السماح به كما هو الحال في المجتمع الغربي ، والذى هو في حقيقة الأمر مجتمع تعددى غير ملتزم في التعدد الذى يمارسه بقوانين دينية أو أخلاقية . فلقد سمح للرجل بمعاشرة عشرات النساء ، ويسمح للمرأة بمعاشرة عشرات الرجال دون أن يضع ضوابط دينية أو أخلاقية لهذا النوع من التعدد السائد في الحياة الغربية والذى أدى إلى انتشار الفساد الأخلاقى وانتشار الأمراض النفسية والاجتماعية والصحية . كل هذا يعلمه المستشرق علم اليقين ويرفض مع ذلك قبول التعدد الشرعي في الإسلام والذى وضعت له شروط ، والتزامات ، وشرائع تضبطه وتتحكم فيه وتضمن فيه الحقوق للزوجات والأبناء . ولا يمكن الحكم على مثل هذا المستشرق إلا بالجهل لحقيقة وضع التعدد في الإسلام ، وضوابطه ، والقوانين المنظمة له ، وفضائله في منع الرذيلة والفساد ، وحل المشاكل الإنسانية ، أو الحكم عليه بالتعصب الأعمى ضد الإسلام ومجتمعه والتعصب الأعمى لمجتمعه الغربي، وهو أعمى في هذه الحالة لأنه يتغاضى عن التعدد الموجود في الحياة الغربية (٣٢). وهو تعدد محرم ؛ ففيه خروج على تعاليم الدين والشرائع والأخلاق ، فضلاً عن نتائجه الضارة للمجتمع من فساد،

وضياع للأنساب ، وانتشار للأمراض ، وتشريد للأبناء ، وإهانة للمرأة التى ترى بعين رأسها زوجها يدخل فى علاقات محرمة مع أخريات ولا تستطيع إلا أن تبادله الوقوع فى المحرمات بالدخول فى علاقات محرمة مع رجال آخرين . وعلى كل فالرد على شبهة التعدد عند المستشرقين يمكن أن يتم من خلال مواجهته بالواقع الغربى الذى يسمح بالتعدد دون حماية شرعية ، وأيضًا من خلال توضيح المبررات التى اعتمدها الإسلام فى السماح بالتعدد والشروط التى وضعها لذلك ، وتبين فضائل التعدد فى ظل الأسرة وتحت ظل الشرعية ، عن التعدد الذى يمارس بشكل حيوانى فى الغرب وبدون حماية قانونية أو مراعاة للعلاقات الإنسانية .

أما مواجهة المستشرق بواقعه الغربى الذى يسمح بالتعدد خارج إطار الأسرة وبدون قيود دينية ، أو شرعية ، أو أخلاقية [٣٣] فنشير فى هذا الخصوص إلى أن مفهوم الحرية المطلقة فى الغرب أدى إلى تطور أعراف وتقاليد اجتماعية تسمح لكل من الرجل والمرأة بالدخول فى علاقات عاطفية خارج حدود الأسرة ، وخارج نظام الزواج ، ودون أن تكون هناك أية التزامات من جانب الرجل أو المرأة . وليس من هدف لمثل هذه العلاقات المنحرفة سوى إشباع الرغبات الجنسية لدى الرجل والمرأة ، والتى تحولت إلى رغبات حيوانية لاضابط لها .

ولابد من مواجهة المستشرق بأضرار هذا التعدد المسموح به خارج إطار الأسرة والزواج . ففيه أولاً إهدار لكرامة المرأة من خلال العلاقات المتعددة التى تحولها إلى سلعة تباع وتشترى ، وتلقى فى سلة المهملات حين تستهلك وتؤدى غرضها . ونذكر المستشرق بالأضرار الاجتماعية

والنفسية التى تصيب المرأة والرجل فى هذا الخصوص حيث يفقد كل من الرجل والمرأة صفة الانتماء الحقيقى ، وتنتفى المودة والرحمة فى مثل هذه العلاقات التى لاتهدف إلى إقامة رابطة اجتماعية أو علاقة عاطفية سليمة ، ولكن تهدف إلى تحقيق إشباع النزوات والشهوات التى أصبحت نوعًا من أنواع الإدمان الذى يمارسه الإنسان بدون ضوابط ، والذى تعدى فيه حدود الإنسانية، وتحول إلى حيوان بل إن بعض الحيوان أفضل من الإنسان فى هذا الخصوص .

ومن الأضرار الأخرى الناجمة عن مثل هذا التعدد المسموح به فى الغرب ضياع الرابطة الأسرية والاجتماعية التى هدف إليها الشرع من خلال الزواج . ففى مثل هذا التعدد ضياع الأنساب الاجتماعية فى حالة الإنجاب حيث لايعرف الأب فى مثل هذه الأحوال ، فتضيع الحقوق ، وتفسد تربية الأبناء الذين يعتبرون فى هذه الحالة لقطاء يتم التخلص منهم [٣٤] ؛ إما من خلال الاجهاض قبل الولادة ، أو من خلال وضعهم فى الملاجئ بعد ولادتهم ، وفيها يتعرض الأبناء لتربية غير سليمة اجتماعيًا ونفسيًا بدون رعاية من أب وأم . ويسبب هذا الوضع للمرأة إحساسًا بالندم والضياع لإهمالها أداء واجباتها الأسرية ، وفقدانها الانتماء العائلى ، وتصاب بالأمراض النفسية والصحية مثل الاكتئاب والأزمات النفسية . وهى من الأمراض الشائعة فى الغرب .

وإضافة إلى هذا ينجم عن التعدد المسموح به فى الغرب انتشار المفاسد الأخلاقية والاجتماعية ؛ حيث تختلط القيم ، ولا يستطيع الإنسان التمييز بين الحلال والحرام ، والصحيح والخطأ ، والخير والشر .

وهو اختلاط للقيم أدى فى كثير من الأحيان إلى التأثير على الأخيار وغير المنحرفين من خلال اتهامهم بالتزمت والتخلف لأنهم يخرجون على الأعراف والتقاليد التى انتشرت وأصبحت السمة الأساسية للمجتمع. ومن الأخطار الاجتماعية الناجمة عن هذا التعدد انتشار المخدرات والمسكرات، وكل أشكال الإدمان ، وانتشار الجرائم الأخلاقية وبخاصة الجرائم الجنسية كالاغتصاب، والشذوذ الجنسى، والإجهاض. هذا فضلاً عن انتشار الأمراض وأهمها فى الغرب - فى عصرنا الحالى - الإيدز . والذى أثبتت الأبحاث الغربية أن من أهم أسبابه العلاقات الجنسية المتعددة والشذوذ الجنسى . واعتبرت أن من أهم سبل الوقاية من هذا المرض الخبيث البعد عن العلاقات الجنسية غير الطبيعية والعودة إلى تقاليد الأسرة حماية للأزواج والزوجات والأبناء .

أما المواجهة الثانية مع المستشرق فتختص بتوضيح حقيقة التعدد ، والظروف التى أوجبته والشروط المرتبطة به ، والنتائج الإيجابية التى ترتبت عليه فى حياة المجتمع المسلم ، وهى أمور نزعم أن المستشرقين على معرفة جيدة بها ، لكنهم يتجاهلونها فى سبيل تحقيق هدف التشويه للإسلام وللمجتمع الإسلامى . فالتعدد الذى سمح به الإسلام لم يكن لإرضاء شهوات ورغبات جنسية كما هو الحال فى الغرب ، ولكنه تعدد فى ظل نظام الأسرة وفى ظل نظام الزواج الشرعى حسب الكتاب والسنة ، وذلك ليعطى المرأة حقوقها، ولا تخضع المسألة لرغبة الرجل ونزواته . فالتعدد فيه زيادة فى الالتزامات والأعباء وفيه حقوق للزوجات والأبناء ، ويتطلب قدرة على العطاء العاطفى والمالى ، وتحقيق الأمان الاجتماعى والاقتصادى للزوجة والأبناء فى ظل أحكام الشريعة .

والتعدد الذى يرفضه المستشرق حاليًا فى شكله الشرعى كان موجوداً فى اليهودية والنصرانية كما تدل على ذلك نصوص العهد القديم والجديد، وكان له وجوده فى الشرائع السابقة . وقد أبقى عليه الإسلام بعد تهذيبه وإخضاعه للشرع ، وتحديده لضمان تحقيق أهدافه بعيداً عن الانحراف والفساد ، وحفظًا للأنفس والأنساب . ومن عناصر تهذيب التعدد الوقوف به عند عدد يكفل حاجة الرجل ووجوب العدالة فى مطالب الزوجات بعيداً عن الميل والانحراف ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ « سورة النساء الآية ٣ ». ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ « سورة النساء الآية ١٢٩ » .

وبالإضافة إلى وجود التعدد فى الشرائع الماضية وتهذيبه فى الإسلام لتحديده ووجوب تحقيق العدالة بين النساء ، فهناك مقتضيات للتعدد من حيث طبيعة الجنسين ؛ حيث يلبى التعدد طبيعة أو سنة الله فى كونه. فالواقع " أن الطبيعة تسخو بالنساء أكثر مما تسخو بالرجال وتقسو على الرجال أكثر مما تقسو على النساء ، وأن الاتجاه الطبيعى للجماعات فى كل العصور إلى القوة لا إلى الضعف ، وأن الرجل تطّرد قوته الفاعلية إلى حياة أطول مما تستعد له قابلية المرأة ، وأن الرجل لا تعتريه فترات يفقد فيها استعداده على نحو ما يعترى المرأة من هذه الفترات ، وكان من الرجال من تغلب عليه جنسيته لا تحصنه المرأة

الواحدة ... إذا كان هذا هو الواقع ، كان بلا شك مما يقضى بترك الشريعة كما أرادها الله ، لاتقيد إلا بما قيدها به من مراعاة العدل بين الزوجات فى الحدود التى رسمها صاحب الشريعة " (٣٥).

وهكذا تقضى طبيعة الجنسين وسنة الله فى كونه بالتعدد منعًا لترك الرجل والمرأة "تحت ضغط الطبائع والسنن فيضطران إلى مقارفة الإثم مدفوعين بالطبيعة والسنن"(٣٦).

وقد نبه الله سبحانه وتعالى إلى هذا فى قوله : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا ﴾ (٣٧). وهناك مقتضيات إنسانية أخرى جعلت التعدد أمرًا شرعيًا ومقبولا لعلاج حالات إنسانية لاتجد لها علاجًا آخر . ومن هذه الأسباب الداعية إلى التعدد الرغبة فى الإنجاب فى حالة عقم الزوجة الأولى ، وفى حالة المرض الطويل ، وعدم قدرة الزوجة على القيام بواجبات الأسرة والزوج ، وفى حالة طول فترة الدورة الشهرية ، وعدم إقبال بعض النساء على الرجال ، وقلة رغبتهن ، وعدم قدرة الرجال على التحكم فى غرائزهم(٣٧) ، وفى حالة كثرة عدد النساء فى المجتمع وقلة عدد الرجال خاصة بعد الحروب .

هذه هى الحقائق الأساسية حول التعدد الذى جعل منه الاستشراق شبهة كبرى يستخدمها لتشويه صورة المجتمع المسلم وتشويه وضع المرأة المسلمة ، وتشويه صورة الإسلام فى النهاية ، وهو بلا شك هدف استشراقى أساسى يسعى إلى تحقيقه بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة . ويمكن فى النهاية تحديد الأخطاء الاستشراقية فى معالجة قضايا المرأة المسلمة بعيداً عن الموضوعية والحياد العلمى المطلوب فى أن

المستشرقين دأبوا على تزييف الحقائق الإسلامية ، وتقديم صورة مشبوهة للمجتمع المسلم لا تنم عن جهل بالحقيقة ، ولكن تشير إلى رغبة متعمدة فى التشويه . والخطأ الاستشراقى الثانى يبدو كما قلنا فى عزل بعض الحقائق حول وضع المرأة عن الرؤية الإسلامية الشاملة فى هذا الخصوص ، فتبدو هذه الحقائق وكأنها سلبية ومسيئة لوضع المرأة ولطبيعة المجتمع المسلم . وهذا يشير إلى جزئية ثابتة فى المنهج الاستشراقى تؤكد عدم موضوعيته ورغبته فى التشويه ، وهى اقتطاع جزئية من صورة عامة ومعالجتها بشكل مستقل عن هذه الصورة الكلية فتظهر سلبية بالنسبة للجميع . وهذا يذكرنا بمن يقتطع جزءاً من آية قرآنية ليدل على وجود سلبية ، أو ليبيح محرما ، أو غير ذلك من الأمور والمثال المعروف فى هذا الخصوص مثال ﴿ ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ فيأخذ ﴿ ولا تقربوا الصلاة ﴾ ويهمل ﴿ وأنتم سكارى ﴾ . والخطأ الاستشراقى الثالث يظهر فى عقد مقارنة أو مقابلة غير مناسبة وغير منهجية بين وضع المرأة المسلمة ووضع المرأة الغربية دون النظر إلى اختلاف البيئتين الإسلامية والغربية ، واختلاف القيم ، والأخذ بالمظاهر الشكلية دون التعمق الذى يوضح الفارق بين الحالتين . مع أن المقارنة الموضوعية ستنتهى حتماً لصالح وضع المرأة المسلمة . والخطأ يكمن بطبيعة الحال فى إسقاط وضع المرأة الغربية على المسلمة ، وفهم وضع المرأة المسلمة من خلال رؤية وخلفية غربية خالصة .

هذا وقد أشرنا فى الرد على النظرة الاستشراقية لوضع المرأة المسلمة إلى حقائق حول وضع المرأة الغربية وإلى حقائق حول قبول الغرب لنظام

غير شرعى وغير أخلاقى للتعدد يشير إلى اعتراف الغرب بالضرورات التى تبيح التعدد ، والمرتبطة بطبيعة الجنسين، وبطبيعة العلاقات الاجتماعية بين البشر . ومع ذلك فعندما يبحث الغرب عن حل لهذه الأمور يأتى بحل غير أخلاقى يسمح بالتعدد خارج إطار الزواج والأسرة، ويتناسب مع الفهم الغربى المعوج لمفهوم الحرية فى العلاقات بين الجنسين

وتكون النتيجة التى يعانى منها الغرب حاليًا وهى انتشار المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والأمراض النفسية والصحية ، وتفكك العلاقات الأسرية وهى أمور مؤدية فى النهاية إلى تدهور المجتمع وسقوطه .

الفصل االرابع

آثار الفكر الاستشراقى فى المجال الاقتصادى

١- دور الغرب فى تدهور الاقتصاد الإسلامى :

امتدت آثار الفكر الاستشراقى إلى الحيَاة الاقتصادية للمسلمين فى القرن العشرين حيث وقعت المجتمعات الإسلامية تحت تأثير نظامين اقتصاديين من النظم الاقتصادية الغربية المتناقضة وهما : النظام الرأسمالى والنظام الشيوعى . وقد لعب الاستشراق الدور الرئيسى فى إحداث هذا التأثير . وقد كان الدور الاستشراق دوراً مزدوجًا حيث جمع بين الهجوم على النظام الاقتصادي الإسلامي ونقده ، واتهامه بالعجز في حل المشاكل الاقتصادية للمجتمعات الإسلامية ؛ وبين نقل النظريات الاقتصادية الغربية لكى تكون بديلاً للنظام الاقتصادى الإسلامى . وقد اهتم مستشرقو الغرب الرأسمالى بشرح الرأسمالية وتفسيرها لشعوب الشرق ، وتصويرها فى صورة النظام الاقتصادى النموذجى للعالم الإسلامى. وفى نفس الوقت سعى المستشرقون الشيوعيون إلى شرح النظرية الاقتصادية الشيوعية الاشتراكية ، والعمل على نشرها فى البلاد الإسلامية التى وقعت تحت النفوذ السياسى والاقتصادى للاتحاد السوفييتى قبل انهياره . بل إن الأمر لم يتوقف عند حد تقديم النظريتين، ولكن تعداه إلى إعادة تفسير التاريخ الاقتصادى الإسلامى من وجهة نظر الرأسمالية والشيوعية كنوع من التأصيل للنظريتين ، وتقديمهما على أنهما لايمثلان خروجًا على النظام الاقتصادى الإسلامى .

وبداية نقول إن تدهور الاقتصاد الإسلامى فى الماضى لم يكن سببه خلل أو ضعف فى النظام الاقتصادى الإسلامى، ولكنه يعود إلى الحرب الاقتصادية التى شنها الغرب على العالم الإسلامى الذى كان لموقعه الجغرافى فوائد اقتصادية عظيمة «حيث تحكم المسلمون فى طرق التجارة القديمة وفى المسالك البرية والبحرية بين أوربا وآسيا . كما تمكن من السيطرة على التجارة البحرية فى المحيط الهندى، وأنشأ علاقات تجارية منتظمة مع الشعوب المجاورة، وتمكن من الاتصال المنتظم بهذه الشعوب وثقافتها ، وتفوق عليها فى تقديم الوسائل الاقتصادية والفنية وفى المدنية المادية بوجه عام (٣٩)، ويعترف المستشرق جب بأن التدهور الاقتصادى للعالم الإسلامى يعود إلى أسباب داخلية وخارجية . ويشرح الأسباب الخارجية بقوله : «أما ثانية الضربات القاضية فقد أتت من أن أوروبا اهتدت إلى أن العالم الإسلامى يمكن أن تؤخذ عليه السُبُل طبيعيًا واقتصاديًا فى آن واحد إذا فتح الطريق البحرى إلى غرب افريقيا والهند. ولم تكن نتيجة هذا قاصرة على نزف أكبر معين للرخاء الاقتصادى ، ولكنه جعل العالم الإسلامى فى عزلة ... وقُضى عليه بالكساد الاقتصادى وبكل ما يصحبه من الآثار فى الحياة العقلية والأدبية للأمة»(٤١). ثم يربط جب بين الهجوم الاقتصادى والسياسى فيقول : «سار العالم المسيحى فى الهجوم الاقتصادى بخطوات سريعة . فالشركات التجارية الأوروبية لم تقف بباعث من المنافسات الدولية عند احتكار حمل تجارة الدنيا القديمة فحيثما كانت السلطة السياسية المحلية تدعو إلى التدخل كانوا يحلون حكمهم المباشر محلها.وبذلك بدأوا

ينشرون سلطانهم السياسى شيئًا فشيئًا على بلاد إسلامية مختلفة ... ويشقون بالقوة منفذًا فى العالم الإسلامى لمنتجاتهم الخاصة منافسين مصنوعات البلاد المحلية»[٤٢]. وهكذا سار التغلغل الاقتصادى مقارنًا للنشاط السياسى وانتهى بتوطيد هولندا قدمها فى جزر الهند الشرقية وانجلترا قدمها فى الهند على حساب الدول الإسلامية . وتم الاستيلاء على السوق الشرقى لتصريف نتاج المصانع الأوروبية ، وربط الحياة الاقتصادية للمسلمين بالحياة الاقتصادية لأوروبا مما أدى إلى إضعاف الاقتصاد الإسلامى وفقدانه لاستقلاله [٤٣].

وقد استمر هذا التدهور الاقتصادى للمسلمين منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وحتى وقتنا الحالى . ونتج عنه التبعية الكاملة للغرب فى المجال الاقتصادى . ومن مظاهر هذه التبعية تغلغل النظم الاقتصادية الأوروبية إلى أن تم نشر الفكر الاقتصادى الغربى فى القرن العشرين فى بلاد المسلمين من خلال فرض الرأسمالية والشيوعية على البلاد الإسلامية . وقد نتج عن هذا فى التاريخ الاقتصادى الحديث والمعاصر للمسلمين ما يلى :

أ- ضياع الوحدة الاقتصادية للمسلمين . فقد أصبح العالم الإسلامى موزعًا بين النظامين الرأسمالى والشيوعى، وأصبحت تجارتهم تابعة تبعية كاملة لأحد النظامين . وتم ربط الاقتصاد فى المجتمعات الإسلامية بالاقتصاد الرأسمالى والشيوعى ، وفقد المسلمون مكانتهم الاقتصادية العالمية وأصبحت بلادهم سوقًا واسعة للمنتجات الصناعية والزراعية للعالم الغربى .

ب- أدت التبعية لنظامين اقتصاديين متناقضين إلي تفتيت وحدة العالم الإسلامي ، فانقطعت العلاقات التجارية والاقتصادية بين البلاد الإسلامية، وأصبحت كل مجموعة من هذه البلاد تابعة لبلدان النظام الاقتصادى الذى تتبعه، وانقسم المسلمون بين المعسكرين الرأسمالى والشيوعى .

ج- تعطيل المؤسسات الاقتصادية الإسلامية ، ووقف تطورها ونموها لمصلحة المؤسسات الغربية واستبدال النظم الاقتصادية الإسلامية بنظم غربية خالصة .

د- نقل القيّم الاقتصادية الغربية والمبادئ المتحكمة فى نظام السوق الغربى، والقضاء على القيم الإسلامية التى تحكمت فى الاقتصاد الإسلامى .

هـ- عرقلة البرامج الاقتصادية الإسلامية والجهود التنموية للمجتمعات الإسلامية .

٢- الصحوة الإسلامية وإصلاح النظام الاقتصادى :

وفى التاريخ المعاصر للمسلمين ومع تبلور الصحوة الإسلامية بدأت المجتمعات الإسلامية تسعى إلى إحياء وتنشيط العمل الاقتصادى الإسلامى على أسس إسلامية . وقد انبرت الدراسات الاقتصادية توضح عدم صلاحية النظامين المستوردين من الغرب للحياة الإسلامية ، وتوضيح فضل النظام الاقتصادى الإسلامى . وقد تَبِعَ هذه الصحوة على المستوى الاقتصادى إنشاء مؤسسات اقتصادية إسلامية تتخذ من نظريات الاقتصادية الإسلامى أساسًا لها ، وتحاول تطويرها لتناسب متطلبات العصر بدون الإخلال بالأساس الإسلامى .

ومن أهم الأسس التى تعتمد عليها النظرية الإسلامية فى الاقتصاد والتى تميزها عن النظرية الغربية الأساس الدينى العقدى الذى يعتبر الله سبحانه وتعالى مالك الملك ، وأن الإنسان المخلوق مستخلف فى الأرض لعمارتها ، وأن الغاية من حياة البشر عبادة الله ، وأن العمل الصالح هو لُبّ العبادة ، وأن الانتاج والسعى ابتغاءً لفضل الله ، وأن لكل عمل جزاء، ولاجزاء بلا عمل ، وكل غُنم بِغُرم فلا يحل كسب يرفع عن صاحبه احتمال الخسارة ، وأن المجتمع الإنسانى مجتمع متكافل والتمايز فيه بمقدار العمل لصالح المجتمع ككل، وأن واجب الدولة تحقيق العدل والإحسان وحفظ الأمانة. فالتوحيد والاستخلاف والثواب والعقاب من أهم القواعد التى يرتكز عليها الاقتصاد الإسلامى (٤٤).

وهناك الأساس الأخلاقى المميز للنظام الاقتصادى الإسلامى وهو يتمثل فى تحرير الفرد من السيطرة، وعدم الخضوع إلا لذات الخالق، ونفع عباد الله ، وجلب المنفعة المادية ، والتمتع الحلال بالطيبات الحلال. وهناك الأسس التشريعية التى تتناول العمل والملكية والتبادل والعقود وواجبات الدولة وحقوقها قبل المعاملات والتى نص عليها القرآن الكريم والسُنة النبوية الشريفة وأحكام الفقهاء والمجتهدين (٤٥).

وهكذا يتضح أن الفكر الاقتصادى الإسلامى مرتبط بالعقيدة والشريعة، وأن السلوك الاقتصادى للمسلم ليس منعزلاً عن قواعد الدين والأخلاق ، وأن الأفكار الاقتصادية مرتبطة بالدين. وهذه ميزة خص الله - سبحانه وتعالى - بها الحياة الاقتصادية الإسلامية . «فالرفاهية الإنسانية لا تُقاس فى الإسلام بمقياس نقدى، وإنما بالمواءمة بين كسب

النقود من مصدر حلال وإنفاقها وفقًا لتعاليم الإسلام بما يحقق مجتمع الرحمة والعدل » [٤٦].

ولعل من أهم ما يميز النشاط الاقتصادى فى الإسلام طابعه التعبدى، فعمل المسلم عبادة يُثاب عليه إذا كان القصد منه نَيْل رضى الله. وهو نشاط لايهدف إلى تحقيق النفع المادى فقط ولكنه يسعى إلى تحقيق هدف أسمى وهو «إعمار الأرض وتهيئتها للحياة الإنسانية ، تحقيقًا لخلافة الإنسان فى الأرض وإيمانًا بأن الله سيسأل الإنسان عن هذه الخلافة»[٤٧]. وخلو النشاط الاقتصادى الغربى من هذه الغاية هو الذى أدى إلى سيادة المصلحة الشخصية المؤدية إلى تحقيق السيطرة الاقتصادية ، وغلبة الطابع الاحتكارى على السوق . كما أن غياب الرقابة الدينية على النشاط الاقتصادى فى الغرب أدى إلى انحرافه وانتشار ظواهر التسيب والإهمال والاختلاس [٨].

وتتطلب عملية تطوير النظام الاقتصادى الإسلامى فى الوقت الحالى مراجعة الفكر الاقتصادى فى صدر الإسلام لفهم الظواهر الاقتصادية ، ومعرفة المبادئ التى وضعت لتنظيم الشئون الاقتصادية ، والمبادئ التى حددت السلوك الاقتصادى للمسلم وإبراز أهمية الفكر الإسلامى فى إيجاد حلول للمشكلات الاقتصادية على أساس من القيم الدينية والأخلاقية . وتوضيح فضل الفكر الاقتصادى الإسلامى على الفكر الاقتصادى فى الغرب. وهو أمر تجاهله المستشرقون الذين يتجاهلون الجهود العلمية التى بذلها المسلمون فى تطوير الفكر الاقتصادى فى العصور الوسطى التى عانى فيها الفكر الأوروبى من الانحطاط خاصة

فى مجال الفكر الاقتصادى [٤٩]. كما أنهم فى تناولهم لموضوعات الاقتصاد الإسلامى حاولوا دراستها خارج الإطار الدينى والأخلاقى الذى وُضِعَت فيه. فالأمانة والصدق ورعاية المقاصد الشرعية الكبرى ، ووجود ولى أمر يعاقب المذنبين ويسهر على التزام المتعاملين بحدود الشريعة وبأخلاق الإسلام ... يمثل هذا كله الإطار العام الذى تتحرك داخله الأفراد والشركات فى النظام الإسلامى[٥٠] وفى هذا يقول جارودى «الاقتصاد الإسلامى لايهدف فى مبدئه القرآنى إلى النمو بل يهدف إلى التوازن . لذا لايمكن مقارنة الاقتصاد الإسلامى بالنظام الرأسمالى ... ولا بالنظام الجماعى على الطريقة السوفيتية . إن من ميزاته الأساسية عدم الخضوع إلى حركية عمياء تجعل الاقتصاد غاية فى ذاته . بل يتعلق بأهداف سامية إنسانية وإلهية تتجاوزه» [٥١].



الفصل الخامس
الآثار السلبية للفكر الاستشراقى
فى المجال الثقافى والفكرى

يعتبر المجال الثقافى والفكرى من أخطر المجالات التى يستخدمها الاستشراق لإحداث تأثيره الكبير على الحياة الفكرية فى المجتمعات الإسلامية . فعن طريقه انتقلت الأفكار والمذاهب الغربية خلال القرنين الأخيرين ، ووجدت لها مكانًا فى الحياة الثقافية للمسلمين . ونظراً لتعدد مذاهب المستشرقين وأيديولوجياتهم فقد تعددت أشكال الغزو الفكرى ، وتنوعت الاتجاهات الفكرية ، وكثرت المذاهب التى ازدحمت بها الساحة الفكرية فى المجتمع الإسلامى مثل الشيوعية ، والاشتراكية، والعلمانية ، والرأسمالية ، والقومية ، والليبرالية ، وغيرها من المذاهب التى سيطرت على قطاعات عريضة من المفكرين والمثقفين فى العالم العربى والإسلامى .

ويعتبر الفكر الاستشراقى - فى حد ذاته- من أخطر أنواع الفكر تأثيراً على الفكر الإسلامى . فالمستشرقون كمجموعة من العلماء تخصصوا فى العلوم الإسلامية وفى المجتمع الإسلامى، وتعمقوا فى الفكر الإسلامى ، أصبحوا على قدر كبير من المعرفة بالجوانب التى يمكن للغزو الفكرى الغربى أن ينفذ منها إلى الفكر الإسلامى. فالتخصص فى دراسة المجتمعات الإسلامية جعل المستشرقين على دراية بمواطن الضعف التى يمكن استغلالها فى توصيل المعرفة الغربية. كما أنهم تمتعوا بقدر

من القوة والنفوذ بسبب ارتباطهم بالاستعمار والتنصير والصهيونية الأمر الذى جعلهم على مقدرة من تنفيذ خططهم لتغيير وجه الثقافة الإسلامية ، والعمل على تغريب العالم الإسلامى . وقد تمكن بعض القادة من المستعمرين من القيام بدور ثقافى كبير فى تحقيق الغزو الفكرى للشعوب الإسلامية التى كانت خاضعة للاستعمار . ونكتفى بالإشارة إلى الدور الذى لعبه اللورد كرومر فى مصر وجلوب باشا وجوردون فى السودان (٥٢).

وقد تمكن الاستشراق من النفاذ إلى الفكر الإسلامى الحديث من خلال العديد من النظريات الغربية التى ارتبطت بالعلوم الإنسانية والاجتماعية التى تدرس فى العديد من الجامعات العربية والإسلامية ، وبدون إعطاء البديل الإسلامى لهذه النظريات . ومن هذا الطريق تسربت إلى التعليم الجامعى معظم النظريات الغربية فى التاريخ ، والدين، والاجتماع، والفلسفة ، والأدب ، والفن، والأخلاق .. وغير ذلك من المجالات العلمية. وقد انتقلت هذه النظريات من ساحة التدريس بالجامعات إلى الحياة الفكرية والثقافية العامة، وذلك لما للجامعات من دور فى نقل الفكر خاصة وأن معظم الأكاديميين اشتغلوا فى الحياة الفكرية العامة لبلادهم، ولهم تأثيرهم الكبير على الحركة الفكرية التى يغذونها بالنظريات ، والآراء، وعمليات النقد المختلفة (٥٣). وقد نجح الاستشراق فى تكوين قاعدة علمية وثقافية له من أبناء المسلمين الذين يقومون بترويج آراء المستشرقين ونظرياتهم فى بلادهم الإسلامية وتتكون هذه القاعدة الاستشراقية العلمية من تلاميذ للمستشرقين تلقوا تعليمهم

العالى فى جامعات ومعاهد الغرب تحت إشراف المستشرقين ، وبدون وجود أساس دينى وأخلاقى قوى يحصنهم ضد الآراء الاستشراقية ، وعادوا إلى بلادهم- أو بقوا فى الغرب - يرددون النظريات والشُبَه الاستشراقية ويقومون على شرحها ، وتفصيلها ، وتطبيقها فى تخصصاتهم . وقد كان لهم دور كبير فى نشرها نظراً لأنهم يكتبون بالعربية ، أو بإحدى لغات الشعوب الإسلامية بينما ظلت معظم آراء المستشرقين حبيسة الكتاب الأجنبى المكتوب بلغة أجنبية لايعرفها القارئ المسلم فى معظم الأحوال ، أو لايستطيع الحصول عليها فى حالة معرفته للغة الأجنبية .

ويهدف الغزو الفكرى الاستشراقى للثقافة الإسلامية إلى تحقيق عدة أهداف نرصد منها الأهداف التالية :

١- تشتيت الجهود الفكرية والثقافية والعلمية للمسلمين وذلك بنشر النظريات والآراء الغربية الفاسدة التى لاتصلح للمجتمع المسلم، وإشغال المفكرين المسلمين بالرد على هذه النظريات والآراء ، وخلق مناخ من الفوضى هدفه إبعاد العلماء المسلمين عن التفكير فى القضايا الإسلامية الحقيقية التى يواجهها العالم الإسلامى مثل قضايا التخلف العلمى، وقضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وعلاج هذه المشاكل على أساس من المنهج الإسلامى فى التفكير، وعلى أساس من القاعدة الدينية والأخلاقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وتسعى الجهود الاستشراقية فى هذا الصدد إلى طرح العديد من البدائل العلمانية والحلول الغربية لقضايا المجتمع الإسلامى بدعوى عجز الفكر

الإسلامى عن إيجاد حلول للمشاكل الحديثة التى يتعرض لها المجتمع المسلم ؛ ويدعوى ربط التخلف بالدين، واعتبار الدين عقبة فى سبيل تقدم المجتمع ؛ ويدعوى أن الغرب لم يتقدم علميًا إلا بعد هجر الدين وعزله ، وفصل الدين عن الدولة ، واعتبار الدين أمرًا شخصيًا يُمارس على المستوى الشخصى ويجب ألا يكون له دور فى تنظيم وإدارة شئون الجماعات . وأنه على المجتمع المسلم أن يسير فى طريق الغرب ويتبنى طرقه ووسائله وأفكاره إذا أراد أن يحقق التقدم العلمى والتنمية المنشودة فى كل مجالات الحياة الإسلامية .

وقد نجح الاستشراق فى إثارة الشكوك الإسلامية حول جدوى التمسك بالتناول الإسلامى أو المعالجات الإسلامية لمشاكل المجتمع المسلم. فهو يُشكك فى قيمة التعليم الدينى السائد خاصة فى الجامعات الإسلامية ، ويدعو إلى ما يسميه تحديث العلوم والمناهج، وهجر الطريق التقليدية فى التعليم ، ووضع أسس جديدة للتعليم تقوم على نظريات ومناهج غربية . ومن الملاحظ أن الاستشراق نجح فى غزو الجامعات غير الدينية المنتشرة فى العالم الإسلامى واستخدامها فى ترويج النظريات الغربية فى كل مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية . كما تم تعديل المناهج التدريسية إلى الحد الذى أصبحت فيه مشابهة للبرامج العلمية التى تدرس فى الجامعات الغربية. وتم الاعتماد فى هذه الجامعات فى المجتمع الإسلامى على تدريس الكتب الغربية الأصلية من خلال ترجمتها إلى اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية وبدون نقد علمى وإسلامى لها؛ أو عن طريق تأليف كتب فى هذه الموضوعات

والتخصصات الغربية تشرح النظريات الغربية وتدافع عنها. ويسود هذا الاتجاه فى العديد من الأقسام العلمية فى الكليات النظرية مثل أقسام الاجتماع ، وعلم النفس ، والفلسفة ، والتربية ، والخدمة الاجتماعية . وقد حظى التخصصان الأخيران بكليات كاملة تقوم على تدريس البرامج التربوية والخدمة الاجتماعية موزّعة على عدة أقسام علمية .

ويجب أن نشير فى هذا الخصوص إلى نجاح الاستشراق فى خلق مناخ من الصراع الفكرى والعلمى بين المؤسسات العلمية والتعليمية فى المجتمعات الإسلامية، وخلق فجوة كبيرة فى البرامج التعليمية، والتوجهات الفكرية للتعليم فى العالم الإسلامى. وأصبحت الجامعات فى العالم الإسلامى موزّعة بين عدة توجهات أو رؤى متصارعة تساعد على تقوية الخلافات الفكرية داخل المجتمع المسلم . فهناك الجامعات الإسلامية ذات التوجه الإسلامى الواضح ، والتى تهتم بعلوم الدين الإسلامى وبالتوجيه الإسلامى للعلوم فى مقابل التوجهات العلمانية المسيطرة على النوع الثانى من الجامعات المنتشرة فى العالم الإسلامى . وهى الجامعات غير الدينية أو غير المتخصصة فى علوم الدين، ومع ذلك فهى تحتوى على أقسام للعلوم الإنسانية والإجتماعية تتبنى النظريات الغربية. وتعالج الدين من زاوية غربية خالصة يغلب عليها التوجه العلمانى وتُخَرِّجُ طلابًا على نوعية مختلفة من الفكر والثقافة والتفكير التى تهتم بها الجامعات الإسلامية . هذا وقد تمكن الاستشراق من إنشاء جامعات ومؤسسات تعليمية غربية خالصة داخل المجتمع الإسلامى ، تتبع النظم الغربية فى التعليم تبعية مطلقة(٥٤)، بل وتقع تحت الإشراف

الأجنبى وليس للسلطات العلمية والتعليمية الوطنية أية سيطرة عليها من أى نوع . فهناك مثلاً الجامعات الأمريكية المنتشرة فى مصر، ولبنان، وبعض بلاد العالم الإسلامى الأخرى ، وهناك الجامعات البريطانية المنتشرة فى الهند ، والسودان ، والباكستان وغيرها . وهناك الجامعات الفرنسية فى مصر والشمال الإفريقى وعموم القارة الإفريقية وفى المستعمرات الفرنسية السابقة. وفى هذه الجامعات التى تنشر الثقافة الأمريكية والبريطانية والفرنسية والأوروبية عامة يسود النظام الغربى فى التعليم ، وتسود النظريات الغربية ، ويسود التوجه العلمانى الإلحادى المعادى للدين . بل والأخطر من هذا كله خضوع علوم الدين الإسلامى فى هذه الجامعات للمناهج الاستشراقية فى الدراسة والتدريس حيث أن هذه الجامعات والمؤسسات ما هى إلا بؤر استشراقية فى قلب العالم الإسلامى تُخْضع علوم المسلمين لمنهج المستشرقين بتوجهاته العلمانية اللادينية . خاصة وأن هذه الجامعات بها أقسام استشراقية خالصة مثل أقسام دراسات الشرق الأوسط فى الجامعات الأمريكية بالقاهرة وبيروت تُدَرّس بها العلوم المختلفة من وجهة نظر استشراقية بحتة ، ويقوم على ذلك فريق من المستشرقين بالإضافة إلى عدد من العلماء المسلمين الذين تربّوا فى أحضان الاستشراق ومؤسساته الأوروبية. وكان الاستشراق قد نجح أيضًا فى التغلغل إلى التعليم الابتدائى ، والإعدادى، والثانوى بفتح مدارس أجنبية إنجليزية ، وفرنسية ، وإيطالية ، وألمانية ، ويونانية ، ويهودية... بدعوى خدمة الطوائف والأقليات المختلفة المنتشرة فى بلاد العالم الإسلامى الخاضع للاستعمار آنذاك . وقد استمرت هذه المدارس تؤدى وظائفها بعد نهاية

الاستعمار كَبُؤر ومراكز للثقافات الغربية تنشر الفكر الغربى وتدعمه . وقد انتقلت العدوى إلى التعليم الوطني ذاته فسمحت وزارات التعليم في كثير من بلاد العالم الإسلامى بفتح مدارس للغات الأجنبية خاصة الفرنسية ، والانجليزية ، والألمانية ، ومراكز ثقافية أجنبية دون أن تضع عليها الرقابة العلمية والثقافية لمنع تحولها إلى مراكز للغزو الفكرى تعمل على تغريب العالم الإسلامى من الداخل متعاونة مع الدوائر الاستشراقية الأوربية والأمريكية .

٢- نشر القيم الغربية :

سعى الاستشراق دائبًا إلى نشر الأفكار الهدامة والآراء الفاسدة هادفًا إلى هدم الأخلاق الإسلامية ، ونشر القيم الغربية فى المجتمعات الإسلامية من خلال الدعوة إلى الاتجاهات الأدبية والفنية التى لا تلائم البيئة الإسلامية والتى تعكس قيمًا غربية خالصة . ويلاحظ فى هذا الجانب اهتمام بعض المستشرقين بنشر وتحقيق نماذج ونصوص من الأدب السلبى المدفون فى بعض المصادر الأدبية القديمة، بل واعتبار ما تقدمه من نماذج لحياة منحرفة وفاسدة على أنه من طبيعة الحياة الإسلامية. وفى هذا الخصوص نشير إلى بعض الأعمال الأدبية التى لقيت اهتمامًا كبيراً على يد المستشرقين تحقيقًا ، ونشراً ، وترجمة مثل «ألف ليلة وليلة»، وكتاب «الأغانى» للأصفهانى ، وما شابه ذلك من الأعمال الأدبية التى تعرض لألوان من الأدب الخالى من القيم الإسلامية . وقد توسع المستشرقون من ناحية أخرى فى استخدام مثل هذه الأعمال كمصادر أساسية لموضوعات ودراسات تدخل فى مجال الدراسات الدينية

والعقدية. وهو سوء استخدام لهذه المصادر فى غير مواضعها مع إهمال المصادر الإسلامية الأساسية التى تعطى الصورة الإسلامية الصحيحة للموضوع المدروس .

وفى نفس الوقت سعى بعض المستشرقين إلى نشر الاتجاهات الأدبية والفنية الغربية ؛ وبعضها يدعو صراحة إلى الابتذال ، والانحلال ، والفساد باسم الأدب والفن . ومعظم هذه الاتجاهات مثل الرومانسية ، والرمزية ، والسريالية فى الأدب والفن تعكس قيمًا غربية خالصة ، وتعبر عن مشاكل المجتمع الغربى وأزماته ، ولاتصلح أبدًا للتعبير عن قضايا المجتمع المسلم المختلف عن المجتمع الغربى فى طبيعته وأسسه ، كما أنه لم يمر بنفس المشاكل الغربية التى نتجت أصلاً عن البعد عن الدين ، وفصل الحياة الدينية عن الدنيوية ، فانتشر الفساد والانحلال ، وظهرت مشاكل عبر عنها الأدب الغربى بأساليبه ووسائله الخاصة . والتى لاتصلح للتعبير عن مشاكل المجتمع المسلم فضلاً عن علاجها . ولقد ظهرت الاتجاهات الأدبية والفنية فى الغرب استجابة لعوامل داخلية ومشاكل المجتمع الغربى ، وهى اتجاهات يجمعها الإيمان بالحرية المطلقة للإنسان وللعقل الإنسانى، والإيمان بعدم جدوى الإلتزام بالدين والقيم النابعة منه ، والاعتقاد فى عبث الحياة الإنسانية وسيادة اللامعقول فيها كنتيجة عكسية للاعتماد الكلى على العقل وما ينتجه من قيم إنسانية نسبية .

والحقيقة أنه مع الغزو الفكرى للمجتمعات الإسلامية انتقلت هذه الاتجاهات الأدبية والفنية ، وتلقفها الأدباء والفنانون المسلمون المقلدون

للغرب، والمنبهرون بأفكاره ونظرياته دون أن يفكروا فى مناسبتها للمجتمع المسلم، أو فيما تحتويه من قيم فاسدة ومنحلة لا تصلح للإنسان المسلم. لقد أدت هذه الاتجاهات الأدبية والفنية إلى نشر قيم غربية فاسدة بين الشباب المسلم الذى يتلقى هذه القيم من خلال الأعمال الأدبية القصصية والروائية والمسرحية ، ومن خلال الأعمال الفنية التشكيلية وغيرها. وفى هذه القيم تقليد للمجتمع الغربى ، وهجر للتقاليد والعادات الإسلامية ، وخروج على التراث الإسلامى الأصيل فى الأدب والفن ، ووقوع فى الرذائل بأنواعها ، وفى الإنحلالية ، والإباحية ، والعبثية ، وإثارة للصراع داخل المجتمع المسلم بين قيم الإسلام وتقاليده وقيم الغرب المستحدثة .

٣- نشر الفكر غير العقلى

عمل الاستشراق على نشر الخرافات والأساطير فى المجتمعات الإسلامية ، ومحاربة الإسلام كدين للعقل ، وتشجيع الاتجاهات الدينية والفرق الصوفية التى تحتوى أفكارها وعقائدها وممارستها على عناصر تساعد على تغييب العقل المسلم ، أو توجيهه لخدمة أهداف ترفع من قيمة الخرافات ، وتهدر القيم العقلية، وتسلب المسلم قدراته العقلية. ويظهر هذا الهدف الاستشراقى فى الاهتمام الذى يوليه الاستشراق لتحقيق ونشر وترجمة الأعمال الخاصة بالفرق الإسلامية والطرق الصوفية

وكذلك فى الدراسات التى تهتم بالآداب الوثنية التى أنتجتها الشعوب الإسلامية فى فترة جاهليتها وقبل دخولها فى الإسلام مثل الاهتمام بالأساطير العربية القديمة ، وأساطير شعوب الشرق الأدنى القديم .

وقد ظهر الاهتمام الاستشراقى بتواريخ وآداب وحضارات الشعوب الإسلامية قبل دخولها فى الإسلام من أجل العمل على إحياء النزعات القومية لدى هذه الشعوب ، والعودة بها إلى تاريخها السابق على الإسلام ، وإحياء العصبيات القديمة، وإحياء العادات والتقاليد الوثنية القديمة، كما يُشاهد ذلك فى الاحتفالات بالمناسبات والأعياد القومية ، والمهرجانات التى تُعقد فى هذه المناسبات والتى تعكس أفكاراً غير إسلامية ، وتُمجد أعمالاً وثنية ، وتنشر عادات وتقاليد وثنية قضى عليها الإسلام ، وتثير القوميات والعصبيات التى تمكن الإسلام من القضاء عليها . وتهدف من العودة إلى التراث الأسطورى السابق على ظهور الإسلام إلى تمجيد أبطال التاريخ القديم، وإحياء أعمالهم بما تحتويه من أفكار خرافية وأساطير عن أعمالهم الخارقة للعادة والتى تخرج بهؤلاء من دائرة البشرية إلى دائرة الألوهية . وكل هذا يؤدى بلا شك إلى الإضرار بالمسيرة العقلية للمسلمين ، وتُعَطِّل تقدمهم العلمى ، وتدفعهم إلى الإيمان بالخوارق والكرامات والسحر وغير ذلك من الأمور المؤدية إلى التخلف العقلى للمسلمين (٥٥). ولعل هذا يشرح سر الاهتمام الاستشراقى بالتصوف الذى تخصص فيه عدد من أبرز المستشرقين أمثال لويس ماسينيون ، وهنرى كوربان، ونيكلسون ؛ والذين اهتموا بتحقيق الكتابات الصوفية ونشرها وترجمتها ، كما اهتموا بالطرق الصوفية المعاصرة وممارستها ، وركزوا على إبراز تجارب المتصوفة وأعمالهم بما تحتويه من شطحات لايقبلها العقل السليم ، وما ترويه من كرامات ومعجزات ، وما تدعو إليه حياتهم من تواكل وإهمال للواجبات

والفروض الدينية ، وتعطيل الأحكام والتكاليف الشرعية ... وكلها أمور تنحرف بالسلوك الإسلامى وتنمى لدى المسلم الإيمان بالخرافات والأساطير ، وتشغله عن واقعه الإسلامى بأمور غيبية ، وتفاسير باطنية، ورموز غير عقلية ؛ وتبعده عن التفكير العقلى السليم ، وتقتل عنده قيمة العمل الذى تقوم عليه الحياة . وكل هذه آثار سلبية للتصوف حَرِصَ الاستشراق على إظهارها ونشرها وتقديمها على أنها تمثل الروح الدينية الحقيقية فى الإسلام . فالتصوف يمثل عندهم التجربة الدينية الحقيقية عند المسلمين ، أو المعبر عما يسمونه بالروحانية الإسلامية . ولعل من أسباب هذا الميل الاستشراقى إلى التصوف إضعاف الروح العلمية عند المسلمين ، واستقطابهم إلى التفكير الصوفى بأساسه غير العقلى ونتائجه المؤدية إلى تغييب العقل المسلم وإبعاده عن واقعه وقضاياه المعاصرة التى تتطلب اليقظة التامة . والوعى السليم ، والإدراك العلمى حتى يتمكن من علاج هذه القضايا والعيش حسب مقتضيات العصر العلمية وفى ظل رعاية الدين ورقابته .

٤- تشجيع الثقافات القومية

عمل الاستشراق على تشجيع الثقافات القومية المؤدية إلى إحياء النزعات القومية لدى الشعوب الإسلامية ، وذلك من خلال التركيز على دراسة الآداب القومية لكل شعب إسلامى على حدة وتشجيع ما يسمى بالآداب الشعبية والإقليمية التى تميل بطبيعتها إلى تمجيد أبطال السير الشعبية فى كل إقليم إسلامى الأمر الذى ينتج عنه الرفع من شأن الشخصيات التاريخية القومية ، والتركيز على الجوانب القومية فى هذه

الشخصيات على حساب الجوانب الإسلامية ، وتوجيه الطاقات الأدبية والفنية لتخليد هذه الشخصيات من خلال كتابة سيرهم فى لغة إقليمية وعامية الأمر الذى ساعد على تدهور الذوق الأدبى والفنى، وانحدار الموضوعات الأدبية والفنية إلى السطحية والابتذال اللغوى والأسلوبى ، وتعطيل الوظيفة الحقيقية للأدب فى لغته الفصحى وهى تثقيف الشعوب العربية والإسلامية ، ورفع مستواها الفكرى، ودرجة تذوقها الأدبى واللغوى والسمو بأفكارها .

ولاشك فى أن هذا الاهتمام الاستشراقى بالآداب القومية والإقليمية والشعبية فيه تفتيت للوحدة اللغوية عند المسلمين ، وهو دور تقوم به اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم التى يستخدمها المسلمون فى كل مكان . فالتركيز على الآداب الشعبية والإقليمية يؤدى بطبيعة الحال إلى تفضيل استخدام اللغات واللهجات المحلية والقومية كلغة للتعبير عن مضامين قومية وشعبية ، وهجر اللغة العربية الفصحى ولغات الشعوب الإسلامية الرئيسية التى يتحدث بها أعداد ضخمة من المسلمين مثل التركية والفارسية والأوردية، واستخدام لهجات محلية ومضامين وموضوعات قومية ومحلية تؤدى فى النهاية إلى إحياء العصبيات وتفريغ هذه الموضوعات من مضامينها الدينية والأخلاقية الإسلامية لتعبر عن قيم خاصة بجماعات خاصة منفصلة عن المجتمع الإسلامى الكبير.

ولعل من قبيل تشجيع الثقافات القومية تركيز قطاع من الدراسات الاستشراقية الأدبية على نشر الدواوين الشعرية التى تغطى أغراض المديح والهجاء والفخر والغزل لما لهذه النوعية من الأغراض الشعرية من

دور فى نشر القيم السلبية فى المجتمع الإسلامى . فهى بلاشك مثيرة للأحقاد والعصبيات والقوميات التى نجح الإسلام فى وضع نهاية لها حين وحد المسلمين حول العقيدة . كما يدخل فى هذا المجال تشجيع نشر الأعمال التى تتحدث عن مثالب الشعوب بهدف تجزئة الأمة الإسلامية إلى عدة شعوب متناحرة متصارعة تفخر بأجناسها وأعمالها فى الجاهلية، وتُحيى سير أبطالها قبل الإسلام ، وتحتفل بأعيادها القومية ، وتتفاخر على بعضها البعض بإظهارمحاسنها وأمجادها وإبراز مثالب غيرها. وتتفق هذه الرؤية الاستشراقية مع المحاولات التى ظهرت داخل العالم الإسلامى من فئات تسعى إلى إحياء النزعات القومية التى قضى عليها الإسلام مثل بعث الفرعونية فى مصر ، والكنعانية والفينيقية فى الشام، والآشورية ، والبربرية فى الشمال الإفريقى ، والزنجية فى إفريقيا ... ألخ .

ولأجل إحياء هذه الثقافات والنزعات القومية اهتم المستشرقون بدراسة الآداب القديمة السابقة على الإسلام ، وتواريخ شعوب الشرق الأدنى القديم وحضارته ، والتنقيب عن الآثار الدالة على هذا كله [٥٦]. كما اتجهت الدراسات الاستشراقية إلى تشجيع دراسات الأقليات داخل المجتمع المسلم، ودفع هذه الأقليات إلى الاهتمام بثقافاتها ولهجاتها الخاصة ، وبعث لغاتها القديمة . ومن النتائج الفعلية لهذا إحياء اللغة العبرية كلغة لليهود فى فلسطين ، وإحياء السريانية كلغة للحديث والكتابة بين بقايا السريان فى العراق وسوريا ، وكذلك محاولة إحياء القبطية بين أقباط مصر .

وبالإضافة إلى هذا كله لايخفى الاهتمام الاستشراقى بموضوع أدب الشعوبية ، وأدب الفرق الإسلامية ، وشعر النقائض لأن كل هذه الأنواع الأدبية الخاصة تساعد على تقوية النزعات القومية ، والانحرافات الدينية ، والتناحرات الاجتماعية وتؤدى فى نهاية المطاف إلى تجزئة المجتمع الإسلامى ، وتفتيته إلى عدة قوميات وفئات اجتماعية متصارعة . وهى فى مجموعها وتنوعها تؤدى إلى انحلال المجتمع الإسلامى على المستويات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

الفصل السادس
الآثار السلبية للفكر الاستشراقى
فى مجال العلوم الإسلامية

لجأ المستشرقون إلى استخدام عدة وسائل علمية لتشويه الدين الإسلامى وتشكيك المسلمين فى عقيدتهم ، وفيما يلى عرض موجز لهذه الوسائل .

١- التشكيك فى مصادر العلوم الإسلامية :

فقد ركز المستشرقون فى البداية على القرآن الكريم والحديث النبوى باعتبارهما المصدرين الأساسيين للدين الإسلامى، والنجاح فى تشكيك المسلمين فى صدقهما معناه فى النهاية النجاح فى القضاء على الدين الإسلامى. ولهذا اتجهت الدراسات الاستشراقية منذ نشأتها إلى القرآن الكريم مثيرة الشبهات حول مصدره الإلهى واعتبروه من وضع الرسول ﷺ ، وردوا كثيرا ما مادة الوحى الإلهى وموضوعاته إلى مصادر يهودية ونصرانية ، كما حاولوا إثبات وجود صلة للرسول ﷺ بشخصيات يهودية ونصرانية استقى منها الأفكار القرآنية منكرين الوحى القرآنى إنكاراً تامًا .

ومن الوسائل العلمية التى استخدمها المستشرقون لتحقيق هذا الهدف - وهو تشويه القرآن الكريم ، والقول بإنسانية مصدره وإنكار أنه وحى من عند الله سبحانه وتعالى - اللجوء إلى مناهج النقد الغربية

التى طُوِّرَت لدراسة النصوص الأدبية فيما يُعرف بمنهج النقد التاريخى والأدبى والذى طبقه علماء الغرب على كتاب «العهد القديم» وكتاب «العهد الجديد» ، وعلى الأعمال الأدبية الكلاسيكية من أجل تحليلها ، ونقدها ، وعلاج مشاكلها التاريخية والأدبية . وقد فعلوا هذا من منطلق أن «الكتاب المقدس» عند اليهود والنصارى هو أدب عالٍ من وضع الإنسان، ويمثل أرقى الانتاج الأدبى للإنسان عبر العصور . وقد نُظِرَ إلى هذه الأعمال على أنها أعمال متطورة ، بمعنى أنها لم تؤلَّف دفعة واحدة، ولم يكتبها مؤلف واحد ؛ ولكنها مرت بمراحل تطور تاريخية وأدبية تجعلها قابلة للنقد التاريخى والدينى والأدبى. وهم فى هذا لم يخرجوا على الحقيقة . فهذا «الكتاب المقدس» بعهديه القديم والجديد مر بمراحل تطور فى تأليفه ، وجمعه وتثبيت نصوصه تصل إلى ما يقرب من ألف عام بالنسبة للتواره وبقية كتب العهد القديم اليهودية ، وتصل إلى أربعة قرون بالنسبة للأناجيل وبقية كتب العهد الجديد النصرانية . وهى بهذا التطور التاريخى تغيرت مضامينها الدينية عبر مراحل التطور ، وتغير بناؤها الأدبى وأصبحت بالفعل مستحقة لإجراء عمليات النقد الأدبى والتاريخى والدينى عليها [٥٧].

وقد اعتقد المستشرقون خطأ أن ما ينطبق على «الكتاب المقدس» من نقد ينطبق بالضرورة على القرآن الكريم متجاهلين الطبيعة المختلفة للوحى القرآنى ، ومتغافلين عن حقيقة أن القرآن الكريم لم يمر بمراحل تطور مشابهة لتطور كتب العهد القديم والجديد . وقد ساعد على انتشار هذا الاتجاه الاستشراقى فى نقد القرآن الكريم أن عدداً من

المستشرقين كانوا من المؤسسين لعلم «نقد الكتاب المقدس» فى الغرب Biblical Criticism ولهم جهودهم البارزة فى مجال الدراسات النقدية للعهدين القديم والجديد . ومن أهم هؤلاء المستشرقين على الإطلاق المستشرق الألمانى يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤-١٩١٨) الذى يعتبر مؤسس علم «نقد الكتاب المقدس» وهو أيضًا واحد من كبار المتخصصين فى الدراسات الإسلامية والعربية . وفلهاوزن صاحب نظرية كبرى عُرفت باسمه فى مجال نقد «الكتاب المقدس» وهو أيضًا صاحب مدرسة لاتزال إلى الآن لها أتباعها ومريدوها فى حقل الدراسات النقدية للعهد القديم والعهد الجديد .

ومن أشهر المستشرقين الذين عاصروا فلهاوزن وعملوا على نشر المنهج النقدى التاريخى فى مجال الدراسات القرآنية والحديثية المستشرق اليهودى المعروف أجناس جولدتسهر (١٨٥٠-١٨٢١) ، وله أيضًا «تاريخ النص القرآنى» (جورتنجن ١٨٦٠) . وقد أعاد طبعه بعد تحقيقه والتعليق عليه فى مجلدين المستشرق ف شواللى (١٨٦٣-١٩١٩) فى ليبزج (١٩٠٩-١٩١٩) واشترك كل من المستشرق برجشتراسر (١٨٦٦-١٩٣٣) وبريتسل (١٨٩٣-١٩٤١م) فى نشر الجزء الثالث من «تاريخ النص القرآنى» لنولدكه . وقد ألف برجشتراسر «تاريخ قراءات القرآن» (١٩٢٩) و «معجم قراء القرآن وتراجمهم» (١٩١٢) ، كما وضع بريتسل «تاريخ علم قراءة القرآن» . وألف أيضًا «مشروع لاستخدام أسلوب النقد فى نشر القرآن (١٩٣٠). ووضع المستشرق هـ. هيرشفيلد (١٨٥٤-١٩٣٤) كتاب «بحوث جديدة

فى ترتيب القرآن وتفسيره»، وألف المستشرق ب. كاله «القرآن والعربية» (١٩٤٨) ، ووضع المستشرق س. فرانكل (١٨٥٥-١٩٠٩) «الكلمات الأجنبية فى القرآن (ليدن ١٨٧٨) . وقد سار المستشرقون على منهج فلهاوزن وجولد تسهير فى المرحلة الحالية من الاستشراق . ومن أشهر من نفذوا هذا المنهج د. بل فى كتابه «مدخل إلى القرآن » (أدنبرج ١٩٥٤) وآرثر جفرى فى «المفردات الأجنبية فى القرآن الكريم»، و ر . بلاشير «مدخل إلى القرآن » (باريس ١٩٤٧) .

وقد طبق المستشرقون نفس المنهج النقدى التاريخى فى الدراسات الحديثية بهدف إثبات عدم صحة الحديث . وقد غطت دراساتهم جميع مجالات الحديث والمرتبطة بمصطلحاته ، وتطوره ، ووضعه ، ونقده ، وتدوينه من وجهة النظر الاستشراقية ، ومن أهم المستشرقين الذين تناولوا تطبيق منهج النقد التاريخى على الحديث النبوى جولد تسهير فى كتابه «العقيدة والشريعة فى الإسلام » وفى «دراسات محمدية» ، و «مذاهب التفسير الإسلامى»، وكذلك المستشرق جوزيف شاخت فى «المدخل إلى الفقه الإسلامى» .

ولايخفى أن الهدف من كل هذه الدراسات القرآنية والحديثية عند المستشرقين زعزعة ثقة المسلمين فى كتابهم المقدس وفى مصادر شريعتهم ، وعلى رأسها القرآن الكريم والحديث النبوى . ويمكن القول بكل تأكيد أن هذه الدراسات النقدية لم تنجح فى تحقيق هدفها ولم يكتب لها النجاح الذى شهدته دراسات نقد «الكتاب المقدس» عند اليهود والنصارى ، والتى حددت تحديدا نهائيًا الوضع الإنسانى لهذه

الكتب ، وحكمت على «الكتاب المقدس» بأنه كتاب إنسانى ، وليس إلهى المصدر كما ادّعَت الدوائر الدينية اليهودية والنصرانية . ويعود الفشل الاستشراقى فى الوصول إلى نفس الحكم على القرآن الكريم إلى طبيعة القرآن الكريم المختلفة اختلافًا جذريًا عن طبيعة الكتب اليهودية والنصرانية . ونحن نعتبر هذا الفشل من جانب مدرسة النقد التاريخى وأتباعها من المستشرقين دليلاً يُضاف إلى الأدلة الموروثة عن إعجاز القرآن الكريم وإثباتًا علميًا لإلهية مصدره ، والتى تثبتها خصائصه اللغوية والبلاغية ، ووحدته الموضوعية ، ومضامينه الدينية والأخلاقية ، وآياته الكونية ، ومحتوياته التشريعية والفقهية ، ورؤيته التاريخية والحضارية . وهذه جميعًا صفات نفتها مدرسة النقد التاريخى عن كتب العهد القديم والجديد ولاتتوفر فى كتاب دينى مقدس سوى القرآن الكريم . ويعود هذا الوضع الخاص بالقرآن الكريم أولاً وقبل كل شئ إلى حفظ الله سبحانه وتعالى له من التحريف والتغيير والتبديل الذى أصاب الكتب الأخرى مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ إنا نحن نَزّلنا الذِّكر وإنا له لحافظون ﴾[٥٨] هذا فى الوقت الذى أشار فيه القرآن الكريم نفسه إلى حدوث التحريف والتبديل فى الكتب اليهودية والنصرانية كما فى قوله تعالى : ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً . فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ [٥٩]. وقوله تعالى : ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم﴾ [٦٠]. وكذلك قوله تعالى: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ [٦١]. ويُقّر القرآن الكريم بأن الأصل فى وجود الاختلاف هو المصدر الإنسانى

وهو أمر ينطبق على كتب اليهود والنصارى. أما الكتاب الإلهى فلاسبيل لوجود الاختلاف فيه. وهو مبدأ قرآنى نقدى أقرته الآية القرآنية الكريمة : ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً﴾ (٦٢).

ويأتى بعد عناية الله وحفظه لكتابه حرص المسلمين على كتابهم الكريم . فقد كانت الآيات القرآنية المؤكدة على تحريف بنى إسرائيل والنصارى لكتبهم بمثابة تحذير شديد للمسلمين ، وإنذار متكرر من القرآن الكريم حتى لايقع المسلمون فيما وقع فيه أهل الكتاب . ولذلك بذل المسلمون جهوداً عظيمة فى حفظ آيات القرآن الكريم بعد نزولها على الرسول ﷺ مباشرة وتدوينها . وكان نقله بالتواتر وذلك «بأن يتلقاه الجمع العظيم عن النبى ﷺ ثم ينقله جمع عن هذا الجمع ، وهكذا حتى يصل إلينا كما نطق به النبى ﷺ من غير تحريف ولاتبديل ولانقص ولازيادة . والنقل بهذه الطريقة هو السبيل الوحيد لصيانة القرآن وحفظه على الوجه الذى أنزل عليه . وقد كان تلقى الناس له بهذه الكيفية وحفظهم إياه فى صدورهم هو الأصل المحكم عند الاختلاف فى كتابة حرف أو كلمة منه ، وهو طريق حفظه الذى وعد الله به فى كتابه »(٦٣).

هذا الواقع القرآنى فيما يتعلق بحفظه وتواتره لم يحدث بالنسبة لكتب اليهود والنصارى، هذا بالإضافة إلى أن رجال الدين فى اليهودية والنصرانية استأثروا بنصوص كتبهم ، ولم ينشروها بين الناس مما جعل إمكانية التغيير فيها بواسطة رجال الدين لايمكن اكتشافها بواسطة جموع اليهود والنصارى الذين لايملكون نُسَخًا من «الكتاب المقدس»

وذلك لتحريم شيوعه واستخدامه خارج دائرة رجال الكهنوت والقساوسة. وإذا حدثت رغبة فى التبديل باتفاق رجال الدين فلايمكن معرفتها بواسطة جمهور اليهود والنصارى.

والحقيقة أن المسلمين فى منتهى اليقظة فيما يتعلق بنص القرآن الكريم خشية أن تمتد إليه يد التبديل والتغيير وأصبح واجب المسلم قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة سليمة خالية من اللحن والخطأ ، كما أصبح واجبه أيضًا تصحيح خطأ الغير كالإمام فى الصلاة أو غير ذلك وفى كل مناسبة تُتلى فيها آيات القرآن الكريم .

إن مهمة النقد التاريخى المناسبة لكتب اليهود والنصارى ليست لها قيمة تُذكر فيما يتعلق بالقرآن الكريم رغم أهميتها العظمى فى إظهار التحريف والتبديل فى «الكتاب المقدس» اليهودى والنصرانى . فالقرآن الكريم تم حفظه وجمعه وتدوينه فى حياة الرسول ﷺ . ومن هذا المنطلق فالقرآن ليس له تاريخ بالمعنى الذى فهمه علماء «نقد الكتاب المقدس» فى دراستهم للعهد القديم والعهد الجديد حيث مرت نصوص العهدين بمرحلة تاريخية طويلة قبل تثبيت النص . وهى فترة تصل إلى ألف عام بالنسبة للعهد القديم وأربعة قرون بالنسبة للعهد الجديد. وهذا هو المقصود بعبارة «تاريخ النص» عند علماء نقد «الكتاب المقدس» . وهى عبارة من الصعب تطبيقها على نص القرآن الكريم الذى حُفِظَ وجُمِعَ ودُوِنَ فى فترة نزوله على الرسول ﷺ. ولم يمر بمراحل تطور وتحريف وتغيير تؤدى إلى تثبيت للنص كما حدث لكتب اليهود والنصارى . وعبارة «تاريخ النص» تعنى المسافة التاريخية الفاصلة بين زمن نزول

النص وزمن تثبيت النص . وفى حالة التوراه مثلاً نجدها نزلت على موسى عليه السلام فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد بمعنى أن تاريخ نص التوراه يغطى ما يقرب من تسعة قرون تقريبًا تَعَرّضَ فيها النص لكل أشكال التغيير والتبديل والتحريف .

أما بالنسبة للحديث النبوى فقد كان المسلمون على درجة كبيرة من الوعى النقدى إذ أنه بمجرد الإحساس بأن بعض الأحاديث الموضوعة قد تسربت إلى جسم الحديث النبوى بدأت أكبر عملية نقدية فى تاريخ الفكر الإنسانى تم على أثرها إخضاع الحديث لمراحل من النقد العلمى للتأكد من صحته وعودته إلى الرسول ﷺ . ولم ينتظر المسلمون حتى تظهر لهم مدرسة غربية تنقد لهم الحديث . فقد بذلوا جهوداً كبيرة لبيان الصحيح من الموضوع ، ونقدوا الحديث سنداً ومتنًا ، وطوروا سُبُلاً لتنقية الأحاديث النبوية والحصول عليها من مصادرها الأصلية كالرحلة فى طلب الحديث ، وتَتَبُّع طرق تحمله وأدائه ، ونتج عن هذا كله تطور علوم نقدية امتدت لتخدم علومًا أخرى غير الحديث مثل علم التاريخ ، وعلم تاريخ الأديان . ومن أهم هذه العلوم النقدية علم الجرح والتعديل أو «علم الرجال». بل إن المنهج النقدى الذى طوره علم الحديث عند المسلمين امتدت آثاره إلى المنهج النقدى الغربى حيث استفادت مدرسة «نقد الكتاب المقدس» من النقد القرآنى والنقد الإسلامى الذى طوره مؤرخو الأديان والفرق لليهودية والنصرانية ، كما استفادت أيضًا من منهج النقد عند المحدثين . وقد ذكرنا سابقًا اشتراك نفر من المستشرقين وعلى رأسهم يوليوس فلهاوزن فى تأسيس مدرسة نقد الكتب اليهودية والنصرانية .

٢- التشكيك فى أصالة الفكر الإسلامى:

وبالإضافة إلى التشكيك فى صحة القرآن الكريم والحديث النبوى لجأ المستشرقون إلى إثارة الشك العام حول مصادر الفكر الإسلامى ، وردّ الثقافة الإسلامية إلى مصادر أجنبية يهودية ونصرانية ؛ أو فارسية ، وهندية ، ويونانية ، ورومانية ، وسريانية . ولم يترك المستشرقون علمًا من العلوم الإسلامية إلا وردوه إلى مصدر أو عدة مصادر أجنبية . ففضلاً عن رد بعض موضوعات القرآن الكريم والحديث النبوى إلى مصادر يهودية ونصرانية بل ردّ معتقدات الدين الإسلامى إلى أصول أجنبية مختلفة - عمد المستشرقون إلى تشويه الفكر الإسلامى عامة من خلال التشكيك فى مصادره الإسلامية والزعم بعودته إلى أصول أجنبية. وفيما يلى وصف سريع لهذه الفرية الاستشراقية من خلال عرض آراء المستشرقين فى أصالة بعض العلوم الإسلامية .

أ- التشكيك فى أصالة الشريعة والفقه :

تنطلق الدراسات الاستشراقية فى الشريعة والفقه من منطلق أساسى هو عدم الاعتراف باستقلالية الشريعة الإسلامية ، والقول بمصادر أجنبية للشريعة والفقه . وقد مال المستشرقون اليهود بالذات إلى ادعاء وجود تأثير تشريعى يهودى على الإسلام ، والأخذ عن التشريعات والأحكام التوارتية . كما يدعى بعض المستشرقين أصلاً رومانيًا للشريعة الإسلامية ، والقول بتأثر هذه الشريعة بالقانون الرومانى وبغيره من القوانين الوضعية . ولاشك فى أن منشأ هذه الشبهات الجهل بالشريعة

الإسلامية ، والخطأ فى فهمها ، والأخذ بمبدأ تأثير الشرائع الأقدم على الشريعة الأحدث فى التاريخ ، وبمبدأ التأثير والتأثر وبالفصل بين الدين والدنيا . هذا فضلاً عن الرغبة المقصودة فى تشويه الشريعة الإسلامية باعتبارها منافسة للشرائع الأخرى، وكجزء من عملية التشويه العام للإسلام التى تبناها المستشرقون (٦٤). ولأن الشريعة الإسلامية هى الأساس الذى تقوم عليه حياة المجتمع الإسلامى فالتشكيك فيها ومحاولة تشويه مصادرها وأصولها ينعكس على الحياة الإسلامية سلبًا ؛ وتؤثر بالتأكيد على وحدة الحياة الإسلامية، كما هو واضح فى حياتنا المعاصرة من انقسام المجتمعات الإسلامية إلى مجتمعات تطبق الشريعة الإسلامية ومجتمعات لاتطبقها الأمر الذى أدى إلى تفتيت وحدة المسلمين . ولاشك فى أن الاستشراق قد لعب دوراً هامًا فى التقليل من شأن الشريعة الإسلامية ، ووصفها بالجمود وعدم الصلاحية (٦٥). وكما أنه مسئول إلى حد كبير عن انتشار العلمانية فى البلاد الإسلامية والوقوع تحت تأثير القوانين الوضعيـة الغربية وهو أحد الأهداف الاستشراقية الأساسية (٦٦)، أما دعوى تأثير القانون الرومانى على الشريعة الإسلامية فهى تقوم على دعامتين ضعيفتين : الأولى أن القانون السابق فى التاريخ يؤثر على القانون اللاحق أو المتأخر ، والثانية أن هناك تشابهًا فى بعض الأحكام التشريعية بين القانون الرومانى والشريعة الإسلامية .

ويعطى د. عبد الحميد متولى عدة أسباب أدت إلى اعتقاد المستشرقين فى وقوع التشابه منها اعتقادهم فى تقليد الحضارة الأدنى

للحضارة الأعلى فى البلاد التى فتحها العرب ؛ ومنها أيضًا الأخذ بالعرف المتأثر بالقانون الرومانى وغير المتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية ، والاعتقاد الاستشراقى فى أن بعض الفقهاء المسلمين تعلم فى مدرسة بيروت الرومانية مثل الإمام الشافعى والإمام الأوزاعى ، وقول فريق آخر من المستشرقين بانتقال قواعد القانون الرومانى إلى الفقه الإسلامى عن طريق التشريعات اليهودية المتأثرة بالقوانين الرومانية ، ورأى آخر يقول بانتقالها عن طريق مدرسة الاسكندرية بعد الفتح الإسلامى [٦٧].

وقد انبرى عدد من العلماء المسلمين للرد على هذه الشبهة . ويمكن تلخيص ردود المسلمين على شبهة التأثر بالقانون الرومانى فيما يلى :

١- عدم رُقى المتشابه إلى مرتبة القواعد الكلية .

٢- إن إقرار بعض العادات ليس من باب التأثر وإنما هو اعتراف باتفاقها مع مبادئ الشريعة الإسلامية [٦٨].

٣- تأثر القانون الرومانى بالتشريعات اليهودية .

٤- عدم وجود فقيه مسلم واحد من أصل يهودى .

٥- عدم ترجمة كتب فى القانون الرومانى فى عصر الترجمة [٦٩].

٦- وقوع تأثير إسلامى فى القوانين الغربية المستمدة من القانون الرومانى خاصة فى القانون التجارى .

٧- وجود مبادئ فى القانون الرومانى ليس لها مقابل فى الشريعة مثل السلطة الأبوية ، والسيادة الزوجية ، والوصاية على المرأة ... ألخ.

٨- وجود مبادئ فى الشريعة الإسلامية ليس لها مقابل فى القانون الرومانى مثل نظام الحسبة ، والعقاب بالتعزير ، وعدم فصل القواعد القانونية عن القواعد الأخلاقية ، ونظرية الضرورة ، ونظرية إساءة استعمال الحق ، ومبدأ التزام المتعاقدين بناءً على الرضا أى سلطان الإرادة .

٩- عدم وجود ألفاظ قانونية رومانية فى الشريعة الإسلامية واختلاف لغة الفقه [٧٠].

١٠- اختلاف مصادر القانون فالشريعة مصدرها الوحى والسنة بينما القانون الرومانى مصدره العادات والأعراف مما يؤكد استقلال الشريعة الإسلامية فى النشأة والتطور .

١١- تفوق الشريعة الإسلامية فى عدد من المبادئ منها العدالة ، والمساواة بين الأفراد أمام القانون ، وتمتع المرأة بوضع قانونى مستقل ، ومبدأ سلطان الإرادة ، ومبدأ عدم الفصل بين القواعد القانونية والأخلاقية .

١٢- اختلاف الشريعة الإسلامية عن القانون الرومانى فى العموم حيث تخاطب أحكام الشريعة المكلفين دون الاهتمام بتباين لغتهم وقومياتهم وألوانهم أو أجناسهم ، وتختلف أيضًا فى ثبات الأحكام الأساسية ، وفى الصفة الدينية التى لاتتوفر للقانون الرومانى ، والاختلاف فى الأحكام الخاصة بالعقوبات والأحوال الشخصية والمعاملات والالتزامات [٧١].

وبالإضافة إلى شبهة التأثر بالقانون الرومانى لابد من إشارة سريعة إلى شبهة وصف الشريعة بالجمود وعدم الصلاحية وهى شبهة تعتمد على منطق استشراقى خاطئ يعتبر المثالية فى الشريعة الإسلامية وثبات مبادئها ضربًا من ضروب الجمود وعدم الواقعية وبالتالى عدم الصلاحية للتطبيق .

ويرد الدكتور محمد سليم العوا على هذا الادعاء الاستشراقى فى معرض نقده للمستشرق نويل كولسون قائلا : «الصحيح أن مثالية أحكام الشريعة الإسلامية ، لاتعنى عدم صلاحيتها للتطبيق بحال من الأحوال ، والواقع الذى مضى عليه العمل فى العالم الإسلامى كله إلى دخول الاستعمار الغربى بلاد الإسلام ينقض هذه الدعوى ، والعمل الجارى الآن على قدم وساق فى عدد من بلدان الإسلام للحكم بالشريعة الإسلامية ، واصدار قوانين جديدة مستمدة من أحكامها مبنية على مدوناتها الفقهية ، واستمرار العمل بها حتى اليوم فى المملكة العربية السعودية وغيرها من الدول الإسلامية ينقضها كذلك »[٧٢]. ويؤكد الدكتور العوا على أن المثالية تعنى «نزوع الأحكام الشرعية الإسلامية بالإنسان إلى العلو فوق الشهوات والنزوات ، وتحكيم العقل والعدل بدلاً من تحكيم الهوى والغرض ويصف واقعية الأحكام التشريعية الإسلامية بأنها «تبدو فى تحقيق مصالح الناس ورفع الحرج عنهم ، وعدم تكليفهم بما لا يطيقون من الواجبات أو الأعمال . وقد تجلت هذه الواقعية فى عشرات القواعد الفقهية بل مئاتها بما لايدع مجالاً فى إطار البحث العلمى المحايد لرمى هذا الفقه أو هذه الشريعة بعدم الواقعية التى تساوى عند أصحاب هذه التهمة عدم الصلاحية للتطبيق » [٧٣].

ب- التشكيك فى أصالة النحو العربى :

رد بعض المستشرقين النحو العربى إلى أصول يونانية أو سريانية أو هندية أو لاتينية ، فقد قال بالتأثير اليونانى على النحو العربى كل من المستشرق الفرنسى إرنست رينان E. Renan والمستشرق الألمانى هوفمان G. Hoffmann و أ ميركس Merx والمستشرق الهولندى فيرستيج C. Versteegh ومن هؤلاء من قال بتأثير يونانى مباشر مثل نولدكه وفيرستيج وبعضهم قال بتأثير يونانى عن طريق اللغة السريانية . وقد ادعى ف بريتوريوس Practorius وجود تأثير يونانى لاتينى مشترك على النحو العربى . وقد اعتمد هذا الفريق المنادى بالتأثير الأجنبى على النحو العربى على فرضيات لا دليل عليها منها محاولة خلق علاقة تاريخية بين النحاة العرب والنحاة السريان مثل علاقة مفترضة بين أبى الأسود الدولى ويعقوب الرهاوى وافتراض علاقة بين حنين بن إسحاق والخليل بن أحمد . كما افترضوا دوراً للفرس فى نقل المعرفة اليونانية إلى العرب مثل افتراض معرفة عبدالله بن المقفع باليونانية ، وتأثيره فى الخليل بن أحمد . ومن هذه الفرضيات أن مصطلحات الإعراب ، والصرف ، والقياس والحركة مصطلحات يونانية ؛ وأن تقسيم الكلام عند سيبويه تقسيم يونانى . وفى كل هذا يتجاهل المستشرقون ارتباط ظهور النحو بالقرآن الكريم كأحد العلوم التى نشأت عن القرآن الكريم ولضرورة إسلامية خالصة، ولأسباب وظروف داخلية . كما يتجاهل المستشرقون الآراء الواردة فى المصادر العربية فى تاريخ النحو والتى تُقِّر بنشأته الداخلية . وقد ظهر من بين المستشرقين من اعترف بأصالة النحو

العربى، وأن صلته بالنحو اليونانى أو السريانى صلة متأخرة بعيدة عن فترة النشأة والتكوين ، وهو جزء من تأثير عام على الثقافة الإسلامية حدث بعد عصر الترجمة عن علوم اليونان والسريان فى العصر العباسى.

ومن هؤلاء المستشرق الفرنسي أو ترويو O. Troupeau الذى رفض التأثير المبكر لأنه مبنى على فروض تاريخية غير واقعية ومعتمد على تسلسل تاريخى مرفوض بمرور النحو بمرحلة يونانية وسريانية فمرحلة عربية، وأن التأثير اليونانى لايتعدى استعارة بعض المصطلحات ، ورمى القائلين بالتأثير اليونانى بالتعصب العام للثقافة اليونانية ، ورد كل العلوم إليها ، وإنكار فضل الحضارات الأخرى خاصة الحضارات الشرقية القديمة ، والحضارة الإسلامية . وهو يرفض وقوع أى اتصال بين النحاة العرب والسريان قبل حركة الترجمة حيث لايرد ذكر نحوى سريانى واحد فى الأخبار التاريخية النحوية العربية . كما أن المصادر العربية لاتشير إلى أى مؤثرات أجنبية فضلاً عن الإشارات الواردة عن كراهية النحاة العرب للمنطق اليونانى مثل تفرقة الزجاج بين طرق النحاة وطرق المناطقة، واتهام الرمانى النحوى بادخال أفكار فلسفية فى النحو ، والفراء بفلسفة نحوه وهجوم السيرافى على المناطقة (٧٥). ولم يكتف ترويو بهذه الأدلة التاريخية بل أكد على اختلاف طبيعة المصطلحات النحوية العربية والمصطلحات اليونانية . وطور نظرية الأصل الفقهى لمصطلحات النحو العربى مشيراً إلى الاتصالات المستمرة بين النحاة والفقهاء ومعطيًا أمثلة لنحاة تتلمذوا على فقهاء ، ونحاة متمكنين فى الفقه والشريعة والحديث مثل عيسى بن عمر ، ونصر بن عاصم، ويحيى

بن يعمر ، وحماد بن سلمة ، والنصر بن شميل الذى عمل قاضيًا فجمع بين علمى النحو والفقه . وأكد ترويو على ضرورة دراسة الخلفية الثقافية للنحاة العرب للتعرف على مصادر نحوهم[٧٦] . وقد أعطى ترويو مجموعة مصطلحات نحوية مأخوذة عن الفقه الإسلامى مثل : بدل، عوض ، شرط ، كلام ، حد ، حجة ، أصل ، دليل ، نية ، منزلة ، موضع ، قياس ، حسن ، قبيح . ويصفها بأنها مصطلحات وظيفية أى لها وظيفة داخل الكلام مما يشير إلى تأثير فقهى [٧٧].

ج- التشكيك فى أصالة الأدب العربى

وفى مجال الأدب العربى، شكك المستشرقون فى أصالة الأدب «الجاهلى» وصحته من خلال نظرية الانتحال التى طورها عدد من المستشرقين من أهمهم تيودور نولدكه فى بحث له بعنوان «من تاريخ نقد الشعر العربى القديم »[٧٨] ويزعم فيه أن الإنتاج المبكر من الشعر العربى القديم يُظهر فى جوهره الأشكال الخارجية والداخلية التى يعكسها شعر صدر الإسلام حيث يوجد تشابه فى البنية الفنية للقصيدة العربية بين القصيدة العربية القديمة والقصيدة العربية فى صدر الإسلام . كما يزعم أن هناك تشابهًا فى الموضوعات المكونة لمضمون القصائد بحيث يمكن ردّ القصائد الجاهلية من حيث الوضع والتأليف إلى عصر صدر الإسلام بمعنى أن الشعراء الإسلاميين وضعوا قصائدهم على لسان الشعراء الجاهليين لينالوا القبول ويضمنوا لقصائدهم الانتشار . ويزعم نولدكه أيضًا أن قصائد عربية كثيرة وُضعت على الشكل الجاهلى للقصيدة لاستخدامها فى أغراض مختلفة مثل الوعظ والمحاضرة

والفخر، وأن شعراً كثيراً أضيف إلى قصائد قديمة على وزنها وبحرها مما يثير الشك حول صحتها ويجعل من الصعب توثيقها . ومن مزاعم نولدكه أن المعلقات السبع ما هى إلا خرافة وليس لها وجود حقيقى والتسمية «معلقات» تسمية متأخرة ويثير الشك فى القصائد ذاتها وفى أسمائها وشعرائها [٧٩]. ومن مزاعمه أيضًا الادعاء بأنه لايوجد بيت شعرى واحد موثوق فى صحته قبل عام ٥٠٠ ميلادية .

وقد سار على نهج نولدكه ونظريته هذه عدد من المستشرقين مثل المستشرق الوارد W. Ahlwardt فى بحثه «ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة» حيث يربط فيه بين الخبر الأدبى والخبر التاريخى ويزعم أن الموقف من الشعر العربى القديم ما هو إلا جزء من الموقف من التاريخ العربى القديم كله . فكما أنه من الصعب عنده توثيق أخبار العرب قبل الإسلام وإعطاء تصور تاريخى عن حياة العرب فى الجاهلية فالأمر كذلك ينطبق على الشعر الجاهلى من حيث تأليفه ونسبته إلى ناظميه ، ويشكك الوارد كذلك فى صحة الأنساب الواردة فى المصادر العربية القديمة [٨٠].

والتقط المستشرق صموئيل مرجوليوث النظرية من زاوية التدوين فيدعى أن وسيلة العرب فى تدوين شعرهم وسيلة بدائية تسمح بتسرب ودخول الانتحال . فالعرب لم يعتمدوا على الكتابة فى تدوين الشعر بل اعتمدوا على الذاكرة والحفظ ، ويشكك فى قيمة الحفظ وفى الرواية الشفهية ويعتبرها وسيلة غير دقيقة للتدوين ، ويرد إليها كل الاختلافات الخاصة برواية الشعر العربى القديم ، كما أنه شكك فى

الرواة عامة ، ووصفهم بعدم الدقة ، وإدخال تغييرات على القصيدة العربية . ويزعم مرجوليوث أيضًا صعوبة تصور وجود لغة مشتركة للعرب قبل الإسلام يدون بها الشعر العربى القديم . فالعرب اختلفوا فى لهجاتهم ومع ذلك فقد أتى شعرهم فى لغة واحدة وهذا يعنى أن هذا الشعر تم وضعه بعد الإسلام. ويثير مسألة الانتحال متخذاً من مسألة اللغة الواحدة للشعر أساسًا للنظرية . ويربط بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم ، ويعطى على هذا الأساس تاريخًا متأخراً للشعر الجاهلى، كما يعتبر المضمون فى الشعر الجاهلى لايعبر عن الحياة القديمة بل يعبر عن عصر متأخر طابعه إسلامى (٨١).

وقد أثرت نظرية الانتحال كما طورها مرجوليوث على عدد من المتخصصين العرب فى الأدب العربى القديم . وينتمى معظمهم إلى المدرسة العربية النصرانية التى يتزعمها عدد من علماء النصارى العرب وأدبائهم مثل جورجى زيدان ، ولويس شيخو ، وأنيس فريحة ، وأنستاس الكرملى ، وفيليب حتى ، ولويس عوض وغيرهم . كما تبناها بعض علماء الأدب من العرب المسلمين ومن أبرزهم طه حسين الذى اهتم بتطبيق النظرية وشرحها فى عمله المعروف «فى الشعر الجاهلى- ١٩٢٦) » . وقد تبنّت هذه المدرسة العربية الرؤية الاستشراقية للأدب العربى القديم مرددة نفس أدلة المستشرقين السابقة ، ومغلفة هذا كله فى غلاف منهجى مستورد من الفكر الاستشراقى ، وفى ظل رؤية متأثرة بالاستشراق ونظرياته. ولاشك فى أن أهداف هذه المدرسة العربية التقت وأهداف الاستشراق ، بل وساعدت كثيراً فى نشر الفكر الاستشراقى

ونظرياته خاصة فيما يتعلق بمسألة التشكيك فى التراث العربى القديم ، وإثارة الشبهات حول أصالته ، وربط هذا كله بعملية التشكيك فى التاريخ العربى القديم ومصادره الأساسية وعلى قمتها الشعر العربى القديم مصدر اعتزاز العرب وفخرهم وديوانهم ، والمصدر الأساسى لحياتهم قبل الإسلام . كما يرتبط التشكيك فى أصالة الشعر العربى القديم بشبهة استشراقية أعظم وأخطر ، وهى وصف العقلية العربية قبل الإسلام بالجمود والتخلف وعدم القدرة على التخيل والإبداع . وهى النظرية التى وضعها المستشرق الفرنسى إرنست رينان . والأخذ بالانتحال معناه الحكم على العقلية العربية بأنها عقلية خاوية لم تنتج أدبًا أو فكرًا يدل عليها بهدف تشويه صورة هذه العقلية ، ورد إنتاجها الأدبى إلى عصور متأخرة أو نسبة جزء منه إلى يهود ونصارى شبه الجزيرة العربية ، كما فعلت المدرسة اليهودية والنصرانية فى الاستشراق، وكما فعل علماء النصارى العرب وأدباؤهم من خلال إبراز النتاج اليهودى النصرانى على حساب النتاج الأدبى العربى الأصيل .

د. التشكيك فى قدرة اللغة العربية فى العصر الحديث :

لم يتوقف المستشرقون فى هجومهم على اللغة العربية عند الشبهات التى أثارها حول أصالتها فى التاريخ القديم وعصور العربية المختلفة ، ولكنهم اتهموا العربية فى العصر الحديث بأنها لغة عاجزة عن الوفاء بمتطلبات العصر الحديث وغير قادرة على مواكبة التقدم العلمى والتكنولوجى ، ووصل ببعضهم الأمر إلى اعتبار اللغة العربية لغة ميتة مثلها مثل اللغة اللاتينية بالنسبة للغات الأوروبية الحديثة . وبأنها لغة

دينية بمعنى أنها تستخدم فى المجال الدينى وفيما يتعلق بالعبادة ولكنها لاتصلح كلغة للحديث والكتابة تشبيهًا لها ببعض اللغات الدينية القديمة والتى انحصر مجال استخدامها فى المجال الدينى ، ولم يعد لها استخدام فى الحياة اليومية مثل السريانية والسنسكريتية وغيرها .

ووصف المستشرقون اللغة العربية بالجمود وبأنها لغة بدوية لاتصلح للتعبير عن المصطلح العلمى الحديث ، وأنها السبب فى التخلف العلمى للعرب فى العصر الحالى كما أنها السبب فى التخلف الحضارى لأنها غير قادرة على استيعاب ألفاظ الحضارة الحديثة . ويقابل هذا الذم فى اللغة العربية الفصحى الثناء على اللغة العامية وعلى اللهجات العربية المختلفة ، ووصفها جميعًا بالمرونة والسهولة والقدرة على التعبير عن المطالب الحديثة ، ومدحوها كوسيلة تثقيف للجماهير العربية وللتخلص من الأمية المنتشرة بسبب صعوبة اللغة العربية الفصحى (٨٢). وبالإضافة إلى هذا كله اتهم المستشرقون الخط العربى بالصعوبة وعدم الصلاحية لاستقبال رموز ومصطلحات العلم الحديث ، واقترحوا علاجًا لهذه المشكلة بضرورة التخلى عن الخط العربى والأخذ بالخط اللاتينى وترك الأبجدية العربية (٨٣).

وتتجاهل الدراسات الاستشراقية المعاصرة فى أحكامها هذه على اللغة العربية التاريخ العلمى الطويل والمزدهر للغة العربية منذ ظهور الإسلام وحتى العصر الحديث . فتهمة الجمود لم تعرفها اللغة العربية فقد ظلت لغة التعبير العلمى فى الحضارة الإسلامية باختلاف عصورها ، ولم يتوقف استخدامها كلغة علمية ، بل لقد حققت مكانة علمية لم

تصل إليها لغة إنسانية أخرى فى التاريخ القديم والوسيط إلى أن أصبحت لغة العلم الوحيدة خلال العصور الوسطى [٨٤]؛ الأمر الذى أجبر مستشرقى تلك الفترة على تعلمها من أجل اكتساب المعرفة العلمية التى استوعبتها ونقل هذه المعرفة إلى لغاتهم الأوروبية وهو وضع وصل باللغة العربية إلى العالمية . ويمكن تشبيه هذا الوضع آنذاك بوضع اللغة الانجليزية فى العصر الحديث كلغة علم عالمية . واللغة العربية بريئة من تهمة الجمود والتخلف التى ألحقها بها المستشرقون . والعجز العلمى الذى يعانى منه العرب فى العصر الحالى ليس سببه اللغة فى حد ذاتها، ولكنه يعود إلى فشل المتحدثين بها فى تطويعها ، وتطويرها للتعبير عن العلم الحديث . وهو عجز يُنسب إلى المتخصصين فى اللغة والمؤسسات العلمية المسئولة عنها . ومع ذلك فهناك جهود علمية واضحة فى مجال تعريب العلوم الحديثة ، وتطوير المصطلح العلمى يظهر فيما صدر عن المجامع اللغوية العربية من معاجم للتخصصات العلمية المختلفة ، كما يلاحظ النجاح فى تدريس هذه التخصصات باللغة العربية فى كثير من الجامعات العربية. صحيح أن المجهود المبذول مجهود بطئ نسبيًا ، ولايتناسب مع حركة تطور العلم الحديث ، ومع التطور التكنولوجى الهائل الذى يشهده عالمنا المعاصر . ولابد من تضافر الجهود وتنسيقها فى هذا المجال من أجل ملاحقة هذا التصور ، وعدم التخلف عن ركب العلم الحديث خاصة وأننا على مشارف القرن الحادى والعشرين ، والذى سيشهد ثورة علمية شاملة كما تشير القرائن إلى أن العالم فى طريقه إلى استخدام نظم علمية جديدة ، ووسائل

علمية أكثر تطوراً بينما لايزال يعيش عالمنا العربى والإسلامى على الأنظمة العلمية القديمة بوسائلها التقليدية .

ولاشك فى أن الغرب قد تسبب أساسًا فى تخلف العرب والمسلمين فى المجال العلمى وذلك من خلال استعماره للعالم العربى والإسلامى وتحكمه فى وسائل التربية والتعليم، واحتكاره لتكنولوجيا العلم الحديث، ومنعه وصول التقنية الحديثة إلى العرب والمسلمين، فقد كانت نظرة الغرب إلى العلم ولاتزال نظرة استعمارية احتكارية اقتصادية هدفها تحقيق مصلحة الإنسان الغربى وسعادته فى مقابل هلاك الإنسان الشرقى عامة ، واستغلال طاقاته وإمكانات بلاده للرفع من الشأن العلمى للغرب على حساب الشرق. والغرب هو المسئول مسئولية مباشرة عن التخلف العلمى لشعوب الشرق لاحتكاره المعرفة العلمية . والواجب على الشعوب العربية والإسلامية خاصة أن تبذل الجهود العلمية المطلوبة لمتابعة التطور العلمى ، ونقل العلم الحديث إلى اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية . وهى جميعًا لغات صالحة لاستقبال العلم الحديث واستيعابه كما ثبت من تاريخها العلمى فى الماضى .

هـ- التشكيك فى أصالة الحضارة الإسلامية :

من الآثار السلبية للاستشراق تشكيكه فى قيمة الحضارة الإسلامية وفى أصالتها وإنكاره لفضلها على الحضارة الغربية . فقد اتجه بعض المستشرقين إلى إثارة الشبهات حول المنجزات الحضارية الإسلامية . ولأن هذه المنجزات حقيقة لايمكن إنكارها لم يجد بعض المستشرقين الحاقدين

على الإسلام والمسلمين سوى التشكيك فى أصالة الحضارة الإسلامية ورد منجزاتها إلى مصادر أجنبية ، وللتفرقة بين المسلمين يردون معظم هذه المنجزات إلى المسلمين غير العرب بهدف التقليل من شأن الدور العربى فى بناء الحضارة الإسلامية من ناحية ، وإثارة الصراع الحضارى والنزعات القومية بين المسلمين .

وبالنسبة للتشكيك فى أصالة الحضارة الإسلامية فقد عكف فريق من المستشرقين على دراسة علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى، والخروج بنتائج غير موضوعية ترد عناصر الحضارة الإسلامية ومنجزاتها إلى عدة شعوب وحضارات من بينها الحضارات الهندية ، واليونانية ، والسريانية ، بالإضافة إلى الحضارة الغربية الحديثة . ويتخذ هؤلاء المستشرقون من حركة الترجمة الإسلامية فى العصر العباسى كدليل على اعتماد المسلمين على غيرهم وأنهم كانوا مجرد نقلة أو مترجمين للفكر العلمى عند الهنود واليونان والسريان .

وتقوم هذه الشبهة الاستشراقية على مغالطة واضحة . فالشعوب تعتمد على بعضها البعض فى الجانب المادى من الحضارة . والمسلمون عندما اعتمدوا على علوم اليونان والهند وعلى التراث الحضارى المادى للشعوب الأخرى إنما فعلوا ما فعله غيرهم فى الماضى قبل الإسلام ، وما فعله الأوروبيون أنفسهم فى العصر الحديث . فالحضارة اليونانية القديمة استمدت العديد من جوانبها المادية من بلاد الشرق القديم وبخاصة مصر وبلاد النهرين والهند . والحضارة الغربية الحديثة اعتمدت هى الأخرى على علوم المسلمين فقاموا بترجمتها إلى اللاتينية ، وبنوا نهضتهم

الحديثة على أساس من المنجزات العلمية للمسلمين . والحقيقة الأخرى التى يتجاهلها المستشرقون هى أن دور المسلمين الحضارى لم يتوقف عند النقل والترجمة عن اليونان والهنود والسريان . فقد قام المسلمون بتحقيق التراث العلمى اليونانى والهندى وضبطه ، وتفسيره وشرحه ، وتصحيحه، والإضافة إليه إلى أن تمكن المسلمون من استيعاب هذه العلوم وتطوير العلوم الإسلامية التى كَوَّنت الحضارة الإسلامية ، وجعلت منها الحضارة العالمية فى العصر الوسيط ، وجعلت من اللغة العربية لغة العلم(٨٦).

وقد عمد بعض المستشرقين الذين يؤرخون لتاريخ العلم إلى تجاهل المرحلة الإسلامية فى تاريخ العلوم. فنجدهم يقفزون من المرحلة اليونانية إلى المرحلة الأوروبية غير معترفين بوجود مرحلة وسط بين المرحلتين ، وبدونها لايمكن تصور قيام الحضارة الغربية الحديثة ألا وهى المرحلة الإسلامية : وحتى يبدو تاريخ العلم وكأنه تاريخ غربى خالص تعصبًا للإنسان الغربى وللحضارة الغربية مع ملاحظة إنكار وجود مرحلة علمية سابقة على المرحلة اليونانية ، وهى المرحلة الشرقية التى ساهمت فيها شعوب الشرق الأدنى القديم فى وضع أسس العلوم التى نقلها اليونان وبنى عليها حضارته . ويجب أن نلاحظ هنا أن تاريخ العلم لم يكن حكراً لشعب بعينه ، وأن الحضارة المادية هى من نتاج البشرية بأكملها .

ويتجاهل المستشرقون أيضًا تفوق الحضارة الإسلامية ليس فقط فى جانبها المادى ولكن أيضًا فى جانبها القيمى ؛ ونقصد به ما وضعته الحضارة الإسلامية من قيم وضوابط للتحكم فى المنجزات المادية

للحضارة . وهى أمور لم تعرفها الحضارة الغربية بسبب نشأتها وتطورها فى ظل العداء للدين مما جعلها حضارة مادية خالصة لاترتبط بقيم دينية أو أخلاقية . وقد كان لارتباط الحضارة الإسلامية بالدين الإسلامى الفضل فى اتصاف الحضارة الإسلامية بالعديد من الخصائص التى لم تتوفر فى الحضارات الأخرى ، وبخاصة الحضارة الغربية . فالحضارة الإسلامية حضارة دينية إنسانية عالمية عقلانية أخلاقية[٨٧] ؛ وهى جميعًا صفات اكتسبتها من طبيعة الدين الإسلامى وهو الدين الإلهى المصدر ، العالمى الاتجاه . والإنسانى التوجه ، والذى لايتعارض مع العقل السليم ، والأخلاقى النزعة .

أما الشبهة الاستشراقية التى ترد الفضل فى الحضارة الإسلامية إلى غير العرب من المسلمين فانها شبهة تهدف إلى تجزئة العالم الإسلامى وحضارته إلى عالم عربى وعالم غير عربى، وإلى حضارة عربية وأخرى إسلامية غير عربية . كما تهدف الشبهة إلى التقليل من الشأن الحضارى للعرب ، وإثارة الأحقاد بين المسلم العربى والمسلم غير العربى.

وللرد على هذه الشبهة نقول إن مصدر الحضارة الإسلامية - كما ذكرنا- هو الدين الإسلامى . ولذلك فمنجزات الحضارة الإسلامية لاتنسب - ولايجب أن تنسب - إلى شعب مسلم دون غيره خاصة وأن الاستشراق يسعى إلى تأكيد الاختلاف الحضارى بين المسلمين من خلال دعوى تنوع الحضارة الإسلامية إلى الحد الذى يمكن معه عزل حضارة كل شعب مسلم عن حضارة الشعوب الإسلامية الأخرى . وهى دعوى حاقدة لتأكيد القوميات وإثارة الصراعات على المستوى الحضارى بين الشعوب

الإسلامية . فالحضارة الإسلامية واحدة ، ومصدرها واحد ، ولايمكن تجزئتها إلى عدة حضارات متباينة . ومبدأ الأخوة الإسلامية والأمة الإسلامية الواحدة يجعل الفضل فى منجزات الحضارة الإسلامية يُنسب إلى الإنسان المسلم عامة، ويهدف إلى تحقيق سعادة الأمة الإسلامية عامة في الحياة الدنيا وفى الآخرة . ولم يحدث أن احتكر شعب مسلم منجزاً حضاريًا ومنعه عن بقية المسلمين . فسياسة احتكار المنجزات الحضارية ومنعها عن الأخرين سياسة غربية لم تعرفها الحضارة الإسلامية فى تاريخها الطويل . ونذكّر أصحاب هذه الشبهة من المستشرقين أن الفضل فى الإسلام وحضارته يقوم على أساس من التقوى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير﴾ (٨٨) وأن هدف الإسلام إقامة حضارة إنسانية عالمية ولم يكن هدفه أبداً إقامة حضارة على أسس عرقية عربية ، أو غير عربية فالإسلام ليس - كما يدعى المستشرقون - دينا عربيًا ، وكذلك حضارته منسوبة إلى المسلمين جميعًا وليست منسوبة إلى شعب مسلم دون غيره .

وأخيراً نرى فى الدليل الاستشراقى على أن الحضارة الإسلامية من صنع المسلمين غير العرب حجة على المستشرقين أنفسهم فإسهام غير العرب من المسلمين فى بناء الحضارة الإسلامية يُعد من مآثر الإسلام كدين ، وهو دليل قوى على أن حضارة الإسلام احتوت المسلمين جميعًا فى بوتقة واحدة ، وجعلت منهم أمة واحدة . وفى ذلك أيضًا ردّ على شبهة استشراقية أخرى وهى شبهة انتشار الإسلام بحد السيف ، فلو

كان الأمر كذلك ما حدث هذا الاندماج التام والتعمق الحضارى الذى مكن غير العرب من المسلمين من تحقيق هذه المنجزات الحضارية ، والإسهام بفعالية فى بناء الحضارة الإسلامية . وفى هذا أيضًا يتجاهل المستشرقون حقيقة هامة وهى أن عدد المسلمين من غير العرب قد يصل إلى عشرة أضعاف عدد المسلمين العرب . ولذلك فمن الطبيعى أن تكون المشاركة الحضارية للمسلمين غير العرب والمنجزات الناتجة عنها أكبر بكثير من حجم المشاركة العربية فى بناء الحضارة الإسلامية مع التأكيد فى نفس الوقت على أن الناتج الحضارى منسوب إلى المسلمين جميعًا .



الفصل السابع
الآثار الفكرية الإيجابية للاستشراق

لاشك فى أن معظم الآثار الفكرية للاستشراق فى المجتمعات الإسلامية آثار سلبية جعلت المسلمين ينظرون إلى الاستشراق على أنه يمثل حركة فكرية غربية مضادة للإسلام وللمجتمعات الإسلامية . وهى نظرة حقيقية مبنية على أساس حقيقى من تاريخ ارتباط الاستشراق بالاستعمار والتنصير ، واستغلاله من قِبَل هاتين القوتين لتحقيق الأهداف الاستعمارية والتنصيرية في المجتمعات الإسلامية .

وأعتقد أنه مع زوال الاستعمار فى شكله التقليدى ، ومع استقلال الاستشراق عن التنصير - حيث أصبحت للتنصير مؤسساته ومراكزه الخاصة به وارتباطه العضوية بالكنيسة - يمكن أن نكون تصوراً أكثر موضوعية تجاه الاستشراق. ولانزعم هنا أن الاستشراق قد تخلى تماما عن الأهداف السياسية والدينية ، ولكنه فى حالات استقلاله عن الارتباط بالدولة والكنيسة يمكن أن نرى فيه بعض الجوانب الإيجابية التى أفادت المسلمين دون قصد ؛ أى دون أن يكون تحقيق الفائدة الإسلامية من مقاصد الاستشراق أصلاً . ولتكوين صورة إيجابية عن الاستشراق لابد من إجراء عدة عمليات فكرية على الظاهرة الاستشراقية من أهمها :

١- عزل الاستشراق عن القوتين المستغلتين له وهما الاستعمار والتنصير .

٢- توسيع دائرة النظرة الإسلامية للاستشراق لأنها نظرة جزئية لاتحتوى الاستشراق فى شموليته ولكنها تنظر إليه فى إطار ضيق محدود بالتراث الاستشراقى فى الدراسات العربية والإسلامية .

٣- النظر إلى تأثير الاستشراق فى الفكر الغربى وهو جانب مُهْمَل فى دراسات المسلمين عن الاستشراق ويمثل عنصراً إيجابيًا بالنسبة لموقف المسلمين من التراث الفكرى الغربى .

٤- تأثير الإسلام فى المستشرقين :

١- عزل الاستشراق عن الاستعمار والتنصير :

وبالنسبة للعملية الأولى وهى عزل الفكر الاستشراقى عن الرؤية الاستعمارية والتنصيرية المستغلة له عبر العصور فهى تتركنا مع كم هائل من الانتاج الفكرى للمستشرقين ، وتراث استشراقى ضخم من المعرفة الإسلامية ، منها ما يغلب عليه الجانب الوصفى، ومنها ما يغلب عليه الجانب القيمى المفعم بالأحكام الاستشراقية على الفكر الإسلامى ، ومنها أيضًا ما يختلط فيه الوصف بالحكم والتقييم . ومن الواجب علينا إسلاميًا أن نهتم بهذه الجوانب المختلفة ونستفيد منها الفائدة العلمية التى تزيد من معرفتنا بالفكر الإسلامى . فالجانب الوصفى فى الدراسات الاستشراقية أقرب ما يكون إلى الموضوعية العلمية ، ويزخر بالمعلومات التى تكشف الضوء عن العديد من مجالات الفكر الإسلامى توصل إليها المستشرقون من خلال مناهج ووسائل علمية ربما لم تكن متاحة للعلماء المسلمين فى القرون الثلاثة الأخيرة بسبب التخلف العلمى

العام الذى تسبب فيه الاستعمار . أما الأعمال الاستشراقية التى غلب عليها إصدار الأحكام على الفكر الإسلامى فهى من ناحية تحتوى على جانب وصفى يقدم به المستشرق الموضوع المدروس قبل أن يقيمه ويحكم عليه . وتحتوى من ناحية أخرى على أحكام بعضها علمى ، وأغلبها غير موضوعى تظهر فيه رغبة المستشرق فى التشويه ، وإثارة الشبهات، والتشكيك وغير ذلك من الأهداف الاستشراقية ، ومن بينها الهدف الدفاعى عن المعتقد يهوديًا كان أو نصرانيًا ، وعن المذهب الذى يمثل خلفية المستشرق . وبالنسبة لهذه النوعية من الأعمال فالواجب تجاهها ينحصر فى جانبين : الأول عزل المادة الوصفية والاستفادة منها ، والرّد عليها وتقديم التصور الإسلامى السليم لها. وهى عملية تأصيلية يقوم بها العالم المسلم فيصحح الشبهات والمعلومات الخاطئة من خلال مقابلتها بالأصول الإسلامية فى مصادرها الصحيحة الموثوقة ، وحصر أخطاء المستشرق المقصود منها وغير المقصود .

٢- توسيع دائرة النظرة الإسلامية للاستشراق

وفيما يتعلق بتوسيع دائرة النظرة الإسلامية للاستشراق حتى نتمكن من التعرف على بعض إيجابياته المُهْمَلة أو غير المعروفة ، فنقصد بها فى المقام الأول أن نظرة المسلمين إلى الاستشراق نظرة جزئية لاترى الاستشراق فى شموليته كحركة فكرية غربية عامة مهتمة بالشرق ككل، وليس بالشرق المسلم فقط . وتقييم العمل الاستشراقى من جانبنا كمسلمين يجب أن يتم فى ضوء المعالجة الشاملة للفكر الاستشراقى . بل ويجب أن نتقصى وندرس موقف الشعوب الشرقية غير الإسلامية من

دراسات المستشرقين لنستفيد منها في تكوين موقف إسلامي. ولا يخفى على الدارسين أن حجم الأعمال الاستشراقية المرتبطة بشعوب الشرق غير الإسلامية كالهند والصين واليابان وإفريقيا يعتبر أضعاف ما كتبه المستشرقون عن الشعوب الإسلامية وفى هذه المعرفة الاستشراقية بالشعوب الشرقية غير الإسلامية فوائد عظيمة للمسلمين . فهذه الشعوب المجاورة للعالم الإسلامى فى شرقه وجنوبه وشماله تهم العالم الإسلامي فهى مجاله الدعوي ، وامتداده الطبيعى ، وسوقه الاقتصادى، وساحته الفكرية الحقيقية. وأهمية هذا الجزء من العالم الشرقى للمسلمين تفوق بمراحل أهميته بالنسبة للغرب. وقد وقف العالم الإسلامى طوال تاريخه كحاجز دون امتداد النفوذ الغربى إلى هذا الشرق غير المسلم إذ كان على الغرب أن يعبر الأرض المسلمة لكى يصل إلى الشرق الأقصى. ولم يتمكن الغرب من ذلك إلا فى التاريخ الحديث مع ضعف المسلمين ووقوعهم هم أنفسهم تحت السيطرة الاستعمارية الغربية .

ورغم هذه الأهمية فان المسلمين لم يهتموا كثيراً - خاصة فى تاريخهم الحديث - بدراسة هذه الشعوب الشرقية غير المسلمة. ومعرفة أوضاعها الدينية ، والفكرية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية للاستفادة من هذا كله فى تحقيق الأهداف الإسلامية فى هذه المناطق . ومما لاشك فيه أن الاستشراق قد سَدّ هذا الفراغ العلمى بتغطية علمية شاملة ، ودراسة مستقصية مستفيضة لتاريخ وجغرافية الشرق الأقصى وإفريقيا، وللغات هذه المناطق وحضاراتها ، ودياناتها ، ولأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ويمكن الاستفادة إسلاميًا من هذه

المعرفة التى قدمها الاستشراق عن هذه الشعوب فى تحقيق مصالح المسلمين . وهذا النوع من المعرفة مهم بالنسبة للداعية المسلم الذى يجب عليه معرفة أحوال من يدعوهم إلى الإسلام وأوضاعهم الدينية والاجتماعية حتى يتمكن من دعوتهم على أسس علمية واضحة . وتهمه أيضًا معرفة لغاتهم وتاريخهم وجغرافية بلادهم ، وغير ذلك من المعلومات الضرورية للداعية . كما أن هذه المعرفة تهم واضعى السياسات الإسلامية فى العصر الحديث ، خاصة وأن بعض بلاد الشرق الأقصى أصبحت بالفعل قوى عالمية مؤثرة فى السياسة العالمية ، وفى الاقتصاد العالمى . ومن الضرورى التعرف عليها عن كثب لبناء استراتيجية إسلامية شاملة تجاهها لأهميتها السياسية والاقتصادية فى عالم اليوم والغد ، ولكى نتمكن من منافسة الغرب بل ووقف زحفه السياسى والفكرى إلى الشعوب الشرقية ، ومواجهة الجهود التنصيرية الهائلة فى هذه المناطق التى يجب أن تكون إسلامية فهى المجال الدعوى الحيوى بالنسبة للمسلمين .

٣- تأثير الفكر الاستشراقى فى الغرب :

ومن الإيجابيات الاستشراقية غير المدروسة والمُهْملة إسلاميًا التعرف على تأثير الفكر الاستشراقى فى الفكر الغربى . فلقد انشغلنا بتأثير الاستشراق على الفكر الإسلامى وهو أمر مهم وخطير ، ولكن لم نهتم بمعرفة تأثيره فى الفكر الغربى. وهو مفيد وإيجابى من عدة وجوه . أولها معرفة حجم التأثير الإسلامى فى الفكر الغربى. فالمعرفة الإسلامية التى نقلها الاستشراق إلى الغرب كان لها دور كبير فى تطوير الفكر

الغربى بل وتعديل مسيرته فى بعض الأحيان . فقد أدت الأعمال الإسلامية العلمية التى ترجمها المستشرقون قبل عصر النهضة الأوروبية إلى تطوير العلم الغربى ، وإدخال الغرب فى مرحلة النهضة العلمية والتقدم الصناعى والتكنولوجى الذى لايزال يعيشه الغرب حاليًا . وتوضح هذه الأعمال فضل المسلمين على أوروبا وحضارتها ونهضتها . والأمر الثانى أن الترجمة التى قام بها المستشرقون للفكر الدينى الإسلامى وبحوثهم فى مجالاته المختلفة أدت إلى تطور الفكر الدينى اليهودى والنصرانى . فضلاً عن الاستفادة العقدية فى مجال بناء العقيدة ، وتنظيمها ، وإصلاحها استفاد الغرب من المسلمين فى مجال النقد الدينى. فقد أعادت اليهودية والنصرانية النظر فى الاعتقادات الخاصة بهما فى ضوء النقد الإسلامى لهما . وكانت الإصلاحات الدينية ردود فعل حقيقية تجاه هذا النقد الإسلامى . ففى اليهودية نجد الإصلاحات القرائية والسامرية وردود الفعل اليهودية الأرثوذكسية تعكس تأثيراً إسلاميًا حقيقيًا . وفى النصرانية كان ظهور المذهب الإصلاحى البروتستانتى المعارض للكاثوليكية يعكس آثاراً إسلامية واضحة فى بنود الإصلاح الأساسية . وبالإضافة إلى هذا كله نشأت حركة نقد «الكتاب المقدس» Biblical Criticism مستمدة الكثير من نظرياتها فى الكتب اليهودية والنصرانية من النقد القرآنى والنقد الإسلامى لهذه الكتب فى أعمال المسلمين التى ترجمها المستشرقون منذ وقت مبكر إلى اللغة اللاتينية وإلى اللغات الأوروبية الحديثة .

ويعتبر الاستشراق ، أيضًا ، مسئولاً عن إدخال الموضوع الشرقى فى

الأدب الغربى وفى الفنون الغربيـة المختلفة . فالأعمال الأدبيـة والفنيـة الإسلاميـة التى ترجمها المستشرقون إلى اللغات الأوروبية تركت أثراً واضحًا على الأدباء والفنانين الذين انبهروا بالموضوعات الأدبية والفنيـة الشرقية [٨٩]، وزاوجوا بينها وبين الموضوع الغربى فى أعمالهم وقد كان لـ «ألف ليلة وليلة» وغيـرها من أشكال القـصص الشـعبى الشـرقى وقصص الحيوان فى «كليلة ودمنة» أثر واضح فى الآداب الغربية .

كل هذه التـأثيـرات التـى ذكـرناها مـختـصـرة . هى نتـيجـة لقيـام المستشرقين بترجمة الأعمال الإسلامية المختلفة ، والبحث فيها ، ونشرها فى بيئتهم الأمر الذى ساعد على التعريف بالإسلام وحضارته من ناحية، وإثراء الفكر الغـربى بنقـده ، وتصـحيـحـه ؛ ومـده بموضـوعـات جديدة وأشكال أدبية وفنية لم يعهدها مكنته من تطوير آدابه وفنونه وإثرائها .

٤- تأثير الإسلام فى المستشرقين :

وقع العديد من المستشرقين تحت تأثير الفكر الإسلامى الدارسين له . ويُعد هذا من الإيجابيـات الهامة للاستشراق ، وشهادة استشراقيـة على سـلامـة الفكر الإسـلامى وصـحـتـه ، وقـدرته على التـغلغل فى نفوس الدارسين له من غيـر أتبـاعـه . وقـد حـصل هذا التـأثيـر فى نفـوس بعض المستـشـرقين إلى الحد الذى هجـروا فـيـه مـعـتـقـدهم، وأعلنوا الدخول فى الإسـلام . والأمـثلة على هذا كـثيـرة نذكـر منهـا- على سبـيـل المثـال لا الحـصـر - المسـتـشـرق الفـرنسى ايتين دينيـه (١٨٦١-١٩٢٩) ، والمستـشـرق النمـسـاوى ليـوبولد فـايس المعروف فى الإسـلام باسم محـمـد أسـد والذى أعلن إسـلامـه عـام ١٩٢٧م ، والمسـتـشـرق الانجليـزى وليم

بكتول (١٨٧٥-١٩٣٦) الذى أسلم عام ١٩٢٢م وترجم القرآن الكريم إلى الانجليزية ، والمستشرق الفرنسى فنساى مونتاى الذى أسلم عام ١٩٧٧ م وتسمى بالمنصور بالله الشافعى [٩٠]، والمستشرق الجامايكى دوجلاس أرثر وأستاذ علم النفس بأمريكا ، وقد تسمى بعبد الله آرثر ، والدكتور أرثر كين المتخصص فى الفلسفة وعلم النفس والذى أسلم عام ١٩٦١ م، والمستشرق الفرنسى روجيه جارودى الذى أسلم فى السبعينات وتسمى رجاء جارودى ، ومريم جميلة ، والمستشرق الانجليزى ج. ل . بوركهارت (١٧٨٤-١٨١٧م) ، والمستشرق فريتس كرنكوف (١٨٧٢-١٩٥٣م) وتسمى باسم محمد سالم الكرنكوى ، والمستشرق الانجليزى هـ. س فيلبى (١٨٨٥- ١٩٦٠م) ، والمستشرق الفرنسى موريس بوكاى [٩١].

أما قائمة المعجبين بالإسلام والمتعاطفين معه من المستشرقين فكبيرة ويصعب حصرها ونذكر منهم جورج سيل (١٦٩٧-١٧٣٦م) والذى وُصِفَ بأنه نصف مسلم ، والمستشرق الألمانى ج . ج. رايسكة (١٧١٦-١٧٧٤)، وادوارد لين (١٨٠١-١٨٧٦م) وويفلرد بلنت (١٨٤٠-١٩٢٢)، وادوارد براون (١٨٦٢- ١٩٢٦)، والسير توماس أرنولد (١٨٦٤-١٩٣٠م) والمستشرق ر. ف . بودلى ، والسير هاملتون جب (١٨٩٥-١٩٧١م) [٩٢].

٥- إيجابيات أخرى

وبالإضافة إلى العناصر السابقة التى وضحت بعض إيجابيات الاستشراق هناك بعض الآثار الإيجابية الأخرى والتى نلخصها فيما يلى:

١- جهود المستشرقين فى تحقيق التراث الإسلامى والكشف عن الكثير من المخطوطات الإسلامية ، وتحقيقها ، نشرها ، وترجمة بعضها ، وعمل الفهارس لها ، وحفظ المتهالك منها وترميمه ، وتصنيف المعاجم اللغوية فى لغات الشعوب الإسلامية ، وهى جميعًا أعمال ذات قيمة علمية كبيرة وساعدت فى إحداث النهضة العلمية الحديثة فى العالم الإسلامى .

٢- ساعد المستشرقون فى تطوير منهج نقدى للبحث فى التراث الإسلامى نتج عنه إيقاظ الوعى المنهجى لدى المسلمين الذين دفعهم هذا إلى النظر فى الأصول المنهجية والمبادئ البحثية فى الكتابات الإسلامية الأولى من أجل تأصيل منهج إسلامى ينافس المنهج الاستشراقى . وقد ساعد هذا الاهتمام المنهجى فى الوصول إلى معرفة إسلامية جديدة وقراءة التراث الإسلامى قراءة تحليلية نافعة .

٣- للاستشراق دوره فى تحديد مكانة التراث الإسلامى بين تراث الشعوب الأخرى ، وذلك لاهتمامهم بالمنهج المقارن بين الإسلام والأديان الأخرى وبخاصة اليهودية والنصرانية . كما ساعدوا على تحديد مكانة الفكر الإسلامى العالمية كفكر عالمى منافس للحضارات والثقافات الأخرى ، وبينّوا أيضًا فضل الحضارة الإسلامية على الحضارات الأخرى .

٤- ساعد الاستشراق فى تعريف الغرب بالإسلام وحضارته وبالتراث العلمى للمسلمين من خلال ترجمة مئات الأعمال الإسلامية الهامة إلى اللغات الأوروبية ، خاصة وأن المسلمين لم يهتموا بترجمة تراثهم وتعريف الآخرين به، وتركوا مهمة الترجمة للمستشرقين .

٥- اهتم الاستشراق بدراسة واقع العالم الإسلامى مما شجع المسلمين على دراسة أوضاعهم بأنفسهم ، والاهتمام بواقعهم ، وحل المشاكل المختلفة التى تواجههم . وقد وجه الاستشراق أنظار المسلمين إلى مواطن الضعف والقصور فى حياتهم ومجتمعاتهم من خلال الدراسات الاستشراقية التحليلية للمجتمعات الإسلامية ، وللحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة ؛ الأمر الذى دفع العلماء المسلمين إلى محاولة بلورة فكر إسلامى أصيل ومعاصر للرد على آراء المستشرقين ولعلاج مشاكل مجتمعاتهم المعاصرة .

٦-دفع الاستشراق المسلمين إلى ضرورة تطوير نظامهم التعليمى والعلمى مما أدى إلى ظهور نظم تعليمية وتربوية جديدة تعتمد على الوسائل العلمية الحديثة فى الكشف عن الفكر الإسلامى وتفسيره وتدريسه . وأصبحت الجامعات الإسلامية تتساوى فى مناهجها وأساليبها العلمية مع الجامعات الغربية دون أن تضحى بشخصيتها الإسلامية وبقيمها الدينية ؛ بل وسعت جاهدة إلى تأصيل العلوم وربطها بالتراث الإسلامى ، وتوجيهها إسلاميًا [٩٣].

الخاتمة

سُبُل مواجهة الفكر الاستشراقى

١- حقائق المواجهة :

إن تكوين موقف إسلامى من الاستشراق وآثاره فى المجتمعات الإسلامية يجب أن يتم فى ضوء الحقائق التالية :

أولا : أن الاستشراق ظاهرة فكرية قديمة ، باقية ومستمرة طالما أن الصراع بين الغرب والشرق باق على مستوياته الدينية والسياسية والفكرية . وفى ضوء هذه الحقيقة يجب على المسلمين أن يتعاملوا مع الاستشراق فى واقعية تامة ، وبنفس فعالية الاستشراق وديناميكيته دون الاستغراق فى الآمال الخيالية التى يشير أصحابها إلى إمكانية القضاء المبرم على الاستشراق ومخاطره . إن المواجهة الإسلامية مع الاستشراق يجب أن تستند إلى العقل ولاتجنح إلى العاطفة المولده للآمال المستحيلة التحقيق . فضلاً عن أن الاستشراق حركة فكرية عقلية تواجه بالفكر والعقل الذى يدعمه الإيمان الصادق بالدين والثقة فى قدرة الإسلام على المواجهة .

ثانيًا : أن الاستشراق قوة فكرية هائلة تتمتع بنفوذ كبير فى الغرب، وتدعمها الحكومات الغربية والقوى الدينية اليهودية والنصرانية . ومواجهة مثل هذه القوة المدعومة دينيًا وسياسيًا لايمكن أن تتم إلا من خلال قوة مساوية لها فى النفوذ والدعم . ومثل هذه القوة الإسلامية

ليس لها وجود حاليًا إذ لاتوجد حركة فكرية إسلامية أو مؤسسة إسلامية تتمتع بالنفوذ والقوة التى تملكها الحركة الاستشراقية . ولذلك سيطول الصراع مع الاستشراق ، وستستمر الآثار الفكرية الاستشراقية فى المجتمعات الإسلامية إلى أن تنشأ وتتطور حركة فكرية إسلامية مضادة للاستشراق .

ثالثًا : أن الموقف الإسلامى من الاستشراق يجب أن يتحدد فى ضوء سلبيات الاستشراق وايجابياته ؛ بمعنى أن المواجهة الفكرية للاستشراق يجب أن تركز على السلبيات ، وتستفيد من الإيجابيات . وبهذا نضمن للمواجهة موضوعيتها ، وبعدها عن التعامل العاطفى والعشوائى مع الظاهرة الاستشراقية ، وكذلك تخلصها من العمومية التى تعانى منها دراسات المسلمين عن الاستشراق . وفى هذه المواجهة الفكرية لابد من التعامل مع المستشرقين كل على حدة ، فلا نجمعهم جميعًا فى قارب واحد ، ونوجه لهم جميعًا نفس الاتهامات . فالمستشرقون منقسمون على أنفسهم ، ومواقفهم ليست واحدة ، واتجاهاتهم متغايرة ، ومنابعهم الثقافية متنوعة ومختلفة . ولذلك فالتعامل العلمى السليم معهم يتم من خلال فحص آراء كل مستشرق على حدة؛ وتكوين موقف منه مبنى على أساس من أعماله العلمية ، ومواقفه السياسية والدينية وتطورات هذه المواقف فى مسيرته العلمية .

رابعًا : أن الفكر الاستشراقى يمثل كل المذاهب والايدلوجيات المضادة للإسلام . كما أنه يمثل فى المقام الأول الفكر الدينى الغربى بمدرستيه اليهودية والنصرانية . وهذا يعنى أن الفكر الاستشراقى قد احتوى بين

جنباته على كل الرؤى الدينية والفكرية المعادية للإسلام . وتعتمد المذاهب الدينية والفكرية اعتماداً كليًا على المستشرقين في تصدير أفكارها إلى الشرق ، وفي وضع الصياغة المناسبة لهذه المذاهب حسب ظروف وأوضاع كل شعب شرقي على حدة. ولذلك نرى أن أي مجهود يبذل إسلاميًا في مقاومة الشيوعية ، والاشتراكية ، والرأسمالية، والعلمانية ، والمادية ، والليبرالية - بمعناها الغربي- وغيرها من المذاهب .. هو مجهود مفيد في مواجهة الآثار الاستشراقية لأنها آثار متنوعة وناتجة عن اختلاف انتماءات المستشرقين الايدلوجية .

٢- سبل مواجهة الاستشراق :

أما سُبُل مواجهة الآثار الفكرية الاستشراقية في المجتمعات الإسلامية[٩٥] فهي متعددة نذكر منها ما يلي :

أولا : الدراسة العلمية الواعية المتعمقة للاستشراق . فعلى الرغم من قِدَم الظاهرة الاستشراقية وعظمة خطورتها لاتزال المواجهة العلمية الإسلامية لها ضعيفة ولا ترقى إلى مستوى الفكر الاستشراقي . والسبب الرئيسي في هذا الضعف عدم وجود أقسام علمية متخصصة في الدراسات الاستشراقية في الجامعات الإسلامية ، وعدم وجود مراكز بحوث إسلامية متخصصة في الاستشراق تتابع أعماله ، وتتناولها بالبحث ، والتحليل ، والنقد ، والترجمة . وتعتبر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة حيث تنبهت منذ زمن إلى هذا الأمر فأنشأت قسمًا علميًا أكاديميًا للاستشراق في كلية الدعوة بالمدينة المنورة ، ومركزاً للدراسات الاستشراقية والحضارية في نفس

الكلية ، بالإضافة إلى وحدة للبحوث الاستشراقية فى عمادة البحث العلمى بالرياض . وبهذا جمعت الجامعة بين الاهتمام بالتدريس والبحث فى مجال الاستشراق . وهو أمر يجب أن تحتذى به كل الجامعات الإسلامية من أجل تكوين قاعدة من العلماء المسلمين المؤهلين دينيًا وعلميًا لمواجهة الاستشراق . ولذلك نوصى هنا بضرورة أن تتبنى رابطة الجامعات الإسلامية فكرة إنشاء أقسام للدراسات الاستشراقية والتنصيرية وتعميمها فى كل جامعات العالم الإسلامى . فهذه خطوة أساسية فى مواجهة الفكر الاستشراقى الذى يواجهنا بمئات من أقسام الاستشراق ومراكز البحوث المتخصصة والتى يعمل بها جيش من المستشرقين ، ويبلغ عمر بعضها مئات السنين .

ثانيا : مطالبة الإنسان المسلم عامة ، والمثقف خاصة ، بضرورة العودة إلى الدين، والتمسك بتعاليمه ومبادئه ، وأداء الفروض والواجبات الدينية المطلوبة منه ، وتثقيف نفسه دينيًا ، والتفقه فى أمور الدين. ففى هذا كله يتحقق تحصين الإنسان المسلم ضد الآراء المنحرفة التى ينشرها الاستشراق والتنصير . وفى هذا أيضًا تحصين للمجتمعات الإسلامية ضد الغزو الفكرى الاستشراقى .

ثالثًا : مطالبة الحكومات والمؤسسات الإسلامية القادرة بضرورة التحكم فيما تبثه وسائل الإعلام المرئية والمسموعة من موادفكرية متنوعة معادية للفكر الإسلامى ومساعدة على تسرب الفكر الغربى المنحرف إلى المجتمعات الإسلامية . ومطالبة الجهات الإعلامية المختلفة، وبخاصة الصحافة ، بضرورة وضع رقابة صارمة على ما يُنشر فى الجرائد

اليومية من أفكار استشراقية . ونُذكّر فى هذا الخصوص بدور الصحافة العربية غير المسئولة فى استخدام ونشر بعض المصطلحات الاستشراقية دون وعى ومعرفة بدلالة هذه المصطلحات . ونضرب مثلاً بمصطلح «الأصولية» الذى ذاع وانتشر استخدامه المغلوط فى وسائل الإعلام العربية والإسلامية مما أحدث نوعًا من الخلط والغموض والتشويه للمصطلح الإسلامى الصحيح . وساد استخدام المصطلح بدلالته الاستشراقية على «الإرهاب الدينى» و «التزمت» و «الجمود» و «التخلف» ، وغير ذلك من المعانى التى ألصقها الاستشراق بالمصطلح الإسلامى .

رابعا : تنقية الفكر الإسلامى من الأفكار المشبوهة والمشوهة التى دخلته عبر السنين بفعل الفرق والحركات الضالة ، وبفعل الاستشراق والتنصير . ويتطلب الأمر مراجعة مصادر التراث الإسلامى فى كل المجالات لتنقيتها ، وتخليصها من كل الأفكار غير الإسلامية ومواطن الضعف التى كثيراً ما يعتمد عليها المستشرقون والمنصرون فى الاستدلال على أفكارهم وفى إثارة الشبهات . وفى هذا الخصوص ، لابد من تخليص الفكر الإسلامى من جسمين غريبين تغلغلا فيه، وتسببا فى كثير من التشويه له. الأول عرفه العلماء المسلمون باسم «الإسرائيليات» أى الأفكار الإسرائيلية وغيرها مما وجد طريقه إلى بعض كتب التفسير والحديث وبعض مصادر التاريخ الإسلامى. ويجدر الإشارة إلى أن مصطلح «الإسرائيليات» لايشير فقط إلى الأفكار اليهودية ، ولكنه يستخدم للدلالة على كل الأفكار الأجنبية المغُرضة التى تم إدخالها فى الفكر الإسلامى [٩٤].

أما الجسم الثانى الغريب الذى تسرب إلى الفكر الإسلامى فهو أحدث من «الإسرائيليات». وقد اختار بعض العلماء المسلمين تسميته بالغزو الفكرى الحديث . ويُفَضّل فى هذا المقام إطلاق اسم جديد له وهو «الاستشراقيات». وهو مصطلح قد يبو غريبًا لأول وهلة ولكنه معبّر تعبيراً حقيقيًا عن مصدر الغزو الفكر الحديث ألا وهو الاستشراق . وإذا كان العلماء المسلمون قد استقروا على تسمية الغزو الفكرى القديم بـ «الإسرائيليات» فمن الصحة تسمية هذا الغزو الفكرى الحديث بـ «الاستشراقيات» . وهو مصطلح مناسب لأن الاستشراق هو مصدر كل الأفكار الأجنبية المنحرفة والشبهات فى الفكر الإسلامى الحديث ، كما أن له علاقة دلالية بمصطلح «الإسرائيليات» القديم ليس هنا مكان تفصيلها . فالاستشراقيات امتداد طبيعى للإسرائيليات من حيث الدلالة ، وفيها من الشمولية ما يجعلها كمصطلح محتوية على « الإسرائيليات» . ومن الطبيعى أن نقول هنا أن واجب تخليص الفكر الإسلامى من «الإسرائيليات» القديمة والاستشراقيات الحديثة يقع على عاتق العلماء المسلمين الجادين الغيورين على الدين. وهو عمل ضخم يجب أن يتولاه فريق من العلماء لعدد من السنين وبدعم معنوى ومادى كبير من الدول والمؤسسات الإسلامية المعنية بالتراث الإسلامى .

خامسًا : ضرورة العمل على توفير الكتاب الإسلامى البديل للكتاب الاستشراقى ، وبخاصة فى اللغات الأجنبية التى يعتمد أصحابها اعتماداً كليًا على الكتابات الاستشراقية فى الحصول على المعرفة الإسلامية . إن توفير المصدر الإسلامى فى اللغات الأوروبية يؤدى إلى

إحداث نوع من التوازن فى مصادر المعرفة عن الإسلام والمجتمعات الإسلامية ، ويعطى الفرصة للمثقف الغربى وطالب العلم المتخصص فى الإسلام والمسلمين لكى يقارن ويوازن بين المعرفة الاستشراقية عن الإسلام والمعرفة التى تقدمها المصادر الإسلامية حتى يصل إلى الحقيقة التى ينشدها ، فنقلل بالتدريج من اعتماده على المصادر الاستشراقية . ويدخل هذا ضمن المجهود العلمى المطلوب من العلماء المسلمين العارفين باللغات الأوروبية . فمن الواجب عليهم اقتحام مجال التأليف عن الإسلام فى اللغات الأجنبية عامة. وهناك أيضًا مجال ترجمة المصادر الإسلامية الصحيحة إلى هذه اللغات . وهو عمل عظيم له مردوده الكبير فى مقاومة الفكر الاستشراقى ، وتقليل الاعتماد على المصادر الاستشراقية ، وله أيضًا فوائده الدعوية فوجود الكتاب الإسلامى الصحيح فى اللغات الأجنبية المختلفة يُسهل عملية انتشار الإسلام إذ أن إحدى عقبات انتشار الإسلام ، وبخاصة فى الغرب ، سببها عدم وجود الكتاب الإسلامى .

سادسًا : يرتبط بالملاحظة السابقة توفير الكتاب الإسلامى الصحيح للقارئ والمثقف المسلم وكذلك للمتخصص المسلم حتى يقل اعتماده على المصادر الاستشراقية فى لغاتها الأجنبية أو المترجم منها إلى اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية . ومن أول الأعمال المطلوبة بشكل أساسى إعداد دائرة معارف إسلامية يكتبها مسلمون لتحل محل دائرة المعارف الاستشراقية المترجمة إلى اللغة العربية والسائدة فى الاستخدام لدى المتخصصين والتى هى مصدر انتشار كل شبهات المستشرقين فى الأوساط الفكرية الإسلامية .

سابعًا : الإسراع فى تحقيق تنمية المجتمعات الإسلامية ، ووضع حلول إسلامية ناجعة لمشاكلها بدلاً من التوجه إلى الغرب لحل المشاكل والأزمات الإسلامية على اختلاف أشكالها فينفتح بذلك باب للغزو الفكرى . والعمل على تحقيق استقلال المجتمعات الإسلامية من التبعية للغرب سياسيًا واقتصاديًا وفكريًا ، وتحقيق التعاون الجاد بين المجتمعات المسلمة لوضع حلول داخلية لمشاكل العالم الإسلامى .

ثامنا : تقوية الدعوة الإسلامية كمؤسسة فكرية قادرة على مواجهة آثار الفكر الاستشراقى فى المجتمعات الإسلامية إذا ما توفرت لها الإمكانات المتاحة للاستشراق والتنصير . وضرورة تطوير العمل الدعوى فى الغرب بما يناسب الأوضاع الغربية دينيًا وفكريًا ، وتربية دعاة قادرين على مواجهة المستشرقين والمُنَصرين ؛ وتأسيس وحدات لشئون الاستشراق والتنصير فى المؤسسات الدعوية الكبرى لمتابعة الأنشطة الاستشراقية والتنصيرية ، والتخطيط لمواجهتها على أساس من المعرفة العلمية بها .

تم بحمد الله

الحواشي والمراجع

١ - حسن المعايرجي « المحرفون للكلم : الترجمات اللاتينية الأولى للقرآن الكريم وتأثيرها على الترجمات باللغات الأوربية » ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ٤٨ ، يونيو ١٩٨٧م ، ص ٥٤ .

٢ - أبو الأعلى المودودي ، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ، تعريب خليل أحمد الحامدي ، دار القلم ، الكويت ١٣٩٨ هـ ، ص ١١ .

٣ - ساسي سالم الحاج، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، الجزء الأول ، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي ، مالطة ١٩٩١ ، ص ٢١١ - ٢١٣ .

٤ - جوزيف سوموجي ، « اجناس جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١) » ، مجلة العالم الإسلامي التبشيرية ، العدد الثالث يوليو ١٩٥١ ، نقلها إلى العربية الصديق بشير نصر ، في كتاب قضايا الفكر الإسلامي كما يراها بعض المستشرقين . منشورات كلية الدعوة ، طرابلس ١٩٨٨ ، ص ٣٣٦ .

٥ - انظر في موضوع الخلفية الثقافية للمستشرقين :

- محمود حمدي زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، كتاب الأمة رقم ٥ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ .

- مصطفى عمر حلبي ، الخلفية الثقافية لاتجاهات المستشرقين في دراسة شخصية الرسول ﷺ ، مجلة المنهل ٤٧١ جدة ١٤٠٩ هـ ص ٣٠ - ٤٥ .

٦ - انظر في هذا : ادوارد سعيد ، الاستشراق: المعرفة السلطة والإنشاء ، ترجمة : كمال أبو ديب ، بيروت ١٩٨٤ .

٧ - زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية ، ص ١١٦ .

٨ - المرجع السابق ، ص ١١٦ .

٩ - سورة القصص الآية ٧٧ .

١٠ - سورة الشورى الآية ١١ .

١١ - انظر مثلاً أعمال كل من ماسينيون ، التصوف الإسلامى والتصوف المسيحى فى العصر الوسيط (١٩٥٦) وميجيل كروث هرنانديز ، ابن عربى المرسى والروحانية المسيحية الإسلامية (١٩٦٥) ، وآسين بلاثيوس ، الإسلام فى ثوب نصرانى ، (مدريد ١٩٣١) . نقلا عن نجيب العقيقى. المستشرقون .

١٢ - زقزوق ، الخلفية الثقافية ص ١١٦ .

١٣ - يقول الزيادى : « الهدف الثانى الذى كان يتوخاه الصهاينة من تبنى الدراسات (الاستشراقية) هو استخدامها كبداية لدراسات عنصرية استعمارية تهدف إلى إظهار كل مايرفع من شأن اليهود ، ويقلل من قيمة العرب ، وإحياء كل الدعوات التى تؤكد أرض الميعاد والعودة إلى فلسطين. وكانت الدراسات الاستشراقية على أيدى جولدتسيهر ومرجوليوث وريبنان وجب الأرضية الجيدة التى بدأ اليهود من خلالها الاستفادة من حركة الاستشراق والتأثير فيها » . محمد الزيادى ، «أثر اليهودية والصهيونية على الاستشراق» رسالة الجهاد ، فبراير ١٩٨٩ ص ١١٨ وانظر رضوان السيد ، «اليهودية والصهيونية فى الاستشراق» ، مجلة الفكر الإسلامى ، العدد ١ السنة ١٩ ، ١٩٨٩م حيث يؤكد رضوان على اتجاه المستشرقين اليهود إلى إثبات الاستمرار الشعبى والحضارى اليهودى فى عالم الإسلام بالمشرق وبفلسطين عبر التاريخ الإسلامى كله .

١٤ - يلخص محمد السماك قاعدة مايُسمى بالصهيونية المسيحية فى ثلاثة أمور : أن اليهود هم شعب الله المختار وأن ميثاقًا إلهيًا يربط اليهود

بالأرض المقدسة فى فلسطين ، وأن الإيمان المسيحى بعودة السيد المسيح مرتبط بقيام دولة صهيون أى بإعادة تجميع اليهود فى فلسطين حتى يظهر المسيح فيهم . انظر محمد السماك ، الأصولية الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكى ، مركز دراسات العالم الإسلامى ، مالطة ١٩٩١ ، ص ٣٦ - ٣٧ . انظر أيضًا ريجينا الشريف ، الصهيونية غير اليهودية : جذورها فى التاريخ الغربى ، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز ، العدد ٩٦ سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٥م . وانظر : يوسف الحسن ، البعد الدينى فى السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربى الصهيونى ، دراسة فى الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩٠ .

١٥ - د . ابراهيم عكاشة على ، ملامح عن النشاط التنصيرى فى الوطن العربى ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٧هـ ، ص ٢٦ - ٣٢ .

١٦ . أحمد سعد الدين البساطى ، التبشير وأثره فى البلاد العربية والإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨٩ . ص ١٣٨ - ١٤١ .

١٧ - انظر نذير حمدان ، مستشرقون : سياسيون - جامعيون - مجمعيون ، مكتبة الصديق للنشر والتوزيع ، الطائف ، ١٤٠٨ هـ ، ص ٧ - ٨ .

١٨ - محمد خليفة حسن ، « الوحدة الثقافية للمنطقة العربية فى التاريخ القديم » ، مجلة الوحدة ، العدد ٤٢ ، ١٩٨٨ ، ص ٩٩ . وانظر أيضا محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

١٩ - على جريشة ، حاضر العالم الإسلامى ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ،

جدة ١٤٠٨ هـ ، ص ٧٢ .

٢٠ - المرجع السابق ، ص ٧٢ وانظر محمد كاظم حبيب ، مؤامرة فصل الدين عن الدولة ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٧٢ .

٢١ - المرجع السابق ص ٧١ ويذكر عبد المتعال الجابرى أن ضياع الخلافة قد تسبب فى الكثير من المتاعب والآثار السلبية فى الحياة الإسلامية منها فقدان الهوية الإسلامية ، وانتشار الاستبداد ، وتغيير النظام الاجتماعى ، ومحو الشخصية الاجتماعية ، وفقدان الزعامة الدولية . انظر : عبد المتعال محمد الجبرى ، نظام الحكم فى الإسلام بأقلام فلاسفة النصارى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٨٤م ، ص ٥٣ - ٥٧ .

٢٢ - يوضح محمد كاظم حبيب الخلفية الاستشراقية فى فهم النظام السياسى فى الإسلام بقوله : « فالمستشرقون يحددون مفهوم الدين والدولة من طبيعة الصلة الموجودة بين المسيحية والحكم ، والتى تأثرت بعوامل متعددة ... وتبلورت فيما يسمونه بالكنيسة والدولة ، أو بتمايز السلطتين . وعلى هذا الأساس - أى على أساس الفصل والتمييز بين الكنيسة والدولة - حدد الغربيون معنى الدين الذى يوجه الناحية الروحية لدى الأفراد ، ومعنى الدولة التى تنظم شئون حياتهم وعلاقاتهم فيما بينهم ، ولذلك فإن المستشرقين يحاولون أن يخضعوا الإسلام لتلك المفاهيم » محمد كاظم حبيب مؤامرة فصل الدين عن الدولة ص ٦٢ .

٢٣ - محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ، دار الشروق ، بيروت ١٩٨٣م ص ٢٥١ - ٢٥٣ . وانظر أيضًا : أمينة الصاوى ، عبد العزيز شرف . جارودى والحضارة الإسلامية ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة ١٩٨٥ ، ص ٢٢٨ .

٢٤ - المرجع السابق ص ١١٨.

٢٥ - الماوردى ، أبو الحسن محمد بن حبيب ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨ م ص ٥ .

٢٦ - محمد كاظم حبيب ، مؤامرة فصل الدين عن الدولة ، ص ٥٩ - ٦٠ .

٢٧ - يقول ادوارد سعيد إن الاستشراق من الناحية النفسية « شكل من أشكال العصاب التوهمى (بارانويا) ومعرفة من نمط آخر مختلف عن المعرفة التاريخية العادية » ادوارد سعيد ، الاستشراق ص ١٠٠ .

٢٨ - محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ، ٢٠١ ، ٢٠٤ .

٢٩ - أمينة الصاوى وعبد العزيز شرف ، جارودى والحضارة الإسلامية ص٢٧٨ .

٣٠ - محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ص ٤٧٨ وانظر أنور الجندى ، مفاهيم العلوم الاجتماعية ، دار الاعتصام القاهرة ١٩٧٧ ص ٩٨.

٣١ - الشيخ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة العاشرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٢١٩ .

٣٢ - المرجع السابق ص ١٨٠ .

٣٣ - يوسف القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٥ م ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

٣٤ - محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ص ١٩٠ - ١٩١ .

٣٥ - المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

٣٦ - المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

٣٧ - سورة النور الآية ٣٣ .

٣٨ - يوسف القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ، ص ١٧٣ .

٣٩- هاملتون جب وآخرون ، وجهة الإسلام : نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الإسلامى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، المطبعة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص١٩-٢٠ . وانظر أيضًا ، آدم متـز . الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، الجزء الثانى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٦٧ م، ص٣٧١ .

٤٠- جب ، المرجع السابق ص٢٠ .

٤١- المرجع السابق ص٢٠ .

٤٢- المرجع السابق ص٢١ .

٤٣- المرجع السابق ص٢٣ .

٤٤-د. محمود أبو السعود ، أثر تطبيق النظام الاقتصادى الإسلامى فى المجتمع ، القسم الرابع ضمن البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامية بالرياض ١٣٩٦هـ. منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠١ هـ، ص٣٨٣-٣٨٤ .

٤٥- المرجع السابق ص٣٨٤-٣٨٥ .

٤٦- د. عبد الهادى على النجار ، الإسلام والاقتصاد ، دراسة فى المنظور الإسلامى لأبرز القضايا الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٦٣ ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص٢٣ .

٤٧- المرجع السابق ص١٤ .

٤٨- المرجع السابق ص١٦ .

٤٩-د. سيد شوربجى عبد المولى، الفكر الاقتصادى عند ابن خلدون . دراسة تحليلية ، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٩هـ، ص٩-١١ .

٥٠- د. محمد أنس الزرقاء «الزكاة عند شاخت والقراض عند يودفيتش. دراسة وتقويم » فى : مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية والإسلامية ، الجزء الثانى ، الكويت ، ١٤٠٥ هـ. ص٢٤٧ .

٥١- أمينة الصاوى وعبد العزيز شرف ، جارودى والحضارة الإسلامية ، ص٢٢٤ .

٥٢- Albert Hourani, Europe and the Middle East, The Macmillan co., London, 1980, p. 12-13 .

٥٣- أنظر فى ذلك :

Muhammad Benaboud , "Orientalism and the Arab Elite" , in , Islamic Quarterly . p. 3

Bernard Lewis "Islam and West" in National and International Politics in the Middle East ed . by E. Ingram, Frank Cass, London, 1986 , p. 27 .

٥٥- د. محمد خليفة حسن ، مسيرة الوعى العربى . مجلة فكر العدد ١٥ ، ١٩٨٩م . ص٥٨ .

٥٦- د. محمد خليفة حسن ، الوحدة الثقافية للمنطقة العربية فى التاريخ القديم ، ص٩٩ .

٥٧- د. محمد خليفة حسن ، علاقة الإسلام باليهودية : رؤية إسلامية فى مصادر التوراة الحالية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٨ ، وانظر أيضًا د. تنديل محمد قنديل ، النقد الأعلى للكتاب المقدس فى فكر الغرب وينابيعه الإسلامية ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٩٨٩م .

٥٨- (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . سورة الحجر الآية ٩ .

٥٩- سورة البقرة الآية ٧٩ .

٦٠- سورة البقرة الآية ٥٩ .

٦١- سورة المائدة الآية ١٣ .

٦٢- سورة النساء الآية ٨٢ .

٦٣- الشيخ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، ص٤٧٢ .

٦٤- د. عبد الحميد متولى، الإسلام وموقف علماء المستشرقين ، عكاظ للنشر والتوزيع ، جدة ١٤٠٣ هـ، ص١٠-١٢ .

٦٥- أحمد على الملا ، أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ، دار الفكر (بدون تاريخ) ص٨١ .

٦٦- د. عابد بن محمد السفيانى، المستشرقون ومن تابعهم وموقفهم من ثبات الشريعة وشمولها دراسة وتطبيقًا ، مكتبة المنارة ، مكة المكرمة ، ١٤٠٨ هـ ص١٤١ ، ١٤٣ .

٦٧- د. عبد الحميد متولى، الإسلام وموقف علماء المستشرقين ، ص٤٣-٤٥ .

٦٨- المرجع السابق ، ص٤٩ .

٦٩- المرجع السابق ، ص٦٢ ، ٦٣ ، ٥٩ وانظر أحمد على الملا ، ص٨٣ . وكذلك كارلو ألفونسو نالينو ، «نظرات فى علاقات الفقه الإسلامى بالقانون الرومى». فى كتاب : هل للقانون الرومى تأثير على الفقه الإسلامى، دار البحوث العلمية ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ١٩ - ٢٠ .

٧٠- متولى ، ص٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ وكذلك الملا ص٨٥ .

٧١- الملا ص٨٤-٨٥ ، وانظر متولى ٥٢ ،٥٤ ، ٥٦ .

٧٢- د. محمد سليم العوا ، «النظام القانونى الإسلامى فى الدراسات الاستشراقية المعاصرة، دراسة لمنهج المستشرق نويل كولسون » فى مناهج

المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامي ، الجزء الأول ، ص٢٥٧ .

٧٣- المرجع السابق ، ص٢٥٨ .

٧٤- د. اسماعيل عمايرة ، المستشرقون ونظرياتهم فى نشأة الدراسات اللغوية ، دار حزين ، عمان ، ١٩٩٢ ، ص٥٧-٥٨ .

٧٥- جيرار تروبو ، «نشأة النحو العربى فى ضوء كتاب سيبويه» ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى، العدد الأول ١٣٩٨ هـ. ١٩٧٨م .

٧٦- المرجع السابق .

٧٧- المرجع السابق .

٧٨- د. يحيى الجبورى ، «المستشرقون والشعر الجاهلى». سلسلة كتب الثقافة المقارنة ، الاستشراق ، بغداد ١٩٨٧ ، ص٧٨-٧٩ ، ومقال نولدكه منشور فى كتاب عبد الرحمن بدوى «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى» دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩ م ص١٧-٤٠ .

٧٩- يحيى الجبورى ص٧٩ .

٨٠- المرجع السابق ص٨٠-٨٣ ومقال ألوارد مترجم فى عبد الرحمن بدوى «دراسات المستشرقين ..» ص٤١-٨٦ .

٨١- محمد مصطفى هدارة ، موقف مرجليوث من الشعر العربى فى مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ، الجزء الأول، ص٣٩٦-٤٣٨ ، وانظر كذلك يحيى الجبورى ، المستشرقون والشعر الجاهلى ص٨٨-٨٩ وانظر فيه أيضًا نقد المستشرق بروينلش لآراء مرجليوث . ص٨٩-٩٢ .

٨٢- د. عبد الصبور شاهين ، فى علم اللغة العام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٤م، ص٢٦٨-٢٦٩ .

٨٣- د. صبحى الصالح ، دراسات فى فقه اللغة ، دار العلم للملايين، الطبعة

السادسة ، ١٩٧٦، ص٣٥٥-٣٥٩ ، وانظر د. اسماعيل الفاروقي نظرية الفن الإسلامي، مجلة المسلم المعاصر العدد ٢٥، ١٤٠١هـ ص١٥٦-١٦٢ .

٨٤- روم لاندو ، الإسلام والعرب ، ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٧ ، ص٢٤٥ -٢٤٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨٠ - ٢٨١ وانظر ابراهيم مدكور ، «لغة العلم » مجلة مجمع اللغة العربية ج٢٠ ، ١٩٦٦ القاهرة .

٨٥- نجيب العقيقي ، المستشرقون ، الجزء الأول ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠، ص٧٨ ، ٩٥ وانظر روم لاندو ، الإسلام والعرب ، ص٩ ، ٢٤٥ .

٨٦- روم لاندو ، ص٢٤٦ -٢٤٩ وانظر أيضًا ، محمد قطب ، كيف نكتب التاريخ الإسلامي ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، ١٤١٢ هـ، ١٣٨ .

٨٧- محمد قطب ، المرجع السابق ، ص١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٤٨ .

٨٨- سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

٨٩- د. زينات بيطار ، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي ، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٥٧ الكويت ١٩٩٢ ص٩ ، ١٣ .

٩٠- د. عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام ، الندوة للشباب الإسلامي، الرياض ١٤١٢ هـ، ص٦٣ ، ٧٧ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ١٥٠ ، ٢٣٠ .

٩١- المرجع السابق ، ص١٥٠ ، ٢٣٠ . انظر أيضًا نجيب العقيقي، المستشرقون ، الجزء الثاني ، ص٥٢ ، ٩٧ و ١١٦ .

٩٢- العقيقي ، المرجع السابق ، ص٤٧ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ٩٥ ، ١٢٩ ، ١٩٢ .

٩٣- عمادة البحث العلمي . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية . المشروع - برنامج العمل - الإنجازات الرياض ، ١٤١٣هـ، وانظر أيضًا د. اسماعيل الفاروقي، الوجيز

فى إسلامية المعرفة ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، هيرندن ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٨٧ م .

٩٤- د. محمد حسين الذهبى، الوحى والقرآن الكريم ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م . ص١٤٣-١٤٨ .

٩٥- اقترح العديد من العلماء المسلمين وسائل لمواجهة الاستشراق ومن أهمهم : د. محمود حمدى زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، ص١٢٣-١٥٤ ، أبو الحسن الندوى ، الإسلام والمستشرقون ، ندوة العلماء بالهند . انظر أيضًا : الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين. مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٥ هـ. وانظر د. محمد الدسوقى ، الفكر الاستشراقي فى ميزان النقد العلمى، دراسات استشراقية وحضارية ، مركز الدراسات الاستشراقية والحضارية بكلية الدعوة بالمدينة المنورة ، العدد الأول، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣م ص٨٧ - ١٣٥ .





رقم الإيداع ٩٧/٣٢٨٧

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 54 87 - 62 - 5

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق



آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية

د. محمد خليفة حسن





عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES